
من أخلاق المؤمنين :

المراقبة

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا
خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا
أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

المراقبة

المؤمن الحق يعيش في مراقبة دائمة لله تعالى... حركات وسكناته. أقواله وأفعاله... كل ذلك يؤديه مع علمه بأن الله سبحانه وتعالى مطلع وراقب لا تغيب عنه طرفة عين ولا أدنى من ذلك ولا أكبر. إذا نظر إلى ما لا يحل له أن ينظر إليه ناداه منادى المراقبة: حسبك! فإن هناك عيناً علوية سماوية تراقبك من فوق سبع سماوات... فيغض بصره. وإذا تحركت شفتاه ونطق بكلمة ما ناداه هذا المنادى: إن السميع البصير يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء... وهكذا.

فالمراقبة تخلق في أعماق المسلم محكمة عادلة قاضيتها وحاجبتها وشرطيها هذه الصفة الكريمة: " صفة المراقبة " التي لا تعرف المهادنة ولا المجاملة. وإنما تعرف الحق فلا تحيد عنه. وتدرك جيداً أن المرء داخله وخارجه كتاب مفتوح لا يخفى على الله منه شيء. يقول تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾^(١).

هب أنك دخلت محلاً عاماً. وقبل ذلك قيل لك: إن في زوايا هذا المحل عدسات خفية تصور كل حركاتك وسكناتك. فأنت بكل تأكيد تمشي بحذر وتلمس المعروضات بحذر خشية أن يساء فهمك وتتهم زوراً وبهتاناً بأشياء لا تليق بك. وذلك بعكس ما لو دخلت محلاً عادياً فإنك تتصرف فيه بنوع من الحرية أكثر مما لو كنت في المحل الأول ولو لم تحدثك نفسك بأنك سوف تأخذ شيئاً.

مثال ثان: أنت تقود سيارتك على إحدى الطرق السريعة. وتقرأ لافتة تقول " الطريق مراقب بالرادار ". فأنت بكل تأكيد سوف تلتزم بهذه السرعة المقررة ولا تتخطاها خشية المخالفة التي توقعك في المحذور وتعرضك لغرامة مالية وسحب التراخيص التي تحملها. بل ربما قللت السرعة إلى أقل مما هو مكتوب لتكون في أمان أكثر.

هذان المثالان يقربان لك معنى المراقبة التي تجعلك بعيداً عن معاصي الله حتى لا يسجل عليك الحفظة الكرام الكاتبون ما يشينك ويدينك في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ * وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كَرِيمًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢) وقال عز من قائل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٣).

(١) سورة المجادلة. الآية رقم (٧).

(٢) سورة الانططار. الآيات أرقام: (٩، ١٠، ١١، ١٢).

(٣) سورة ق. الآية رقم: (١٨).

فى غيبة هذا الشعور... شعور المراقبة يقع الإنسان فريسة سهلة فى مخالفة الشيطان. وبرائن النفس الأمارة بالسوء وشهوات الدنيا وتقلبات الهوى:

إنى بليت بأربع ترمينى :: بالنبل قد نصبت على شراكا
يابليس والدنيا ونفسى والهوى :: أين أرجو بينهم فكأكا
يارب ساعدنى بفضلك إننى :: أصبحت لا أرجو لمن سواكا

نماذج من المراقبين لله

النموذج الأول: خلا رجل بامرأة وقال لها: نحن هنا فى هذا المكان لا يرانا إلا الكواكب. فقالت له: يا عجبا وأين رب الكواكب؟ ! وتولت عنه وهى تقول:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل :: خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يفعل ساعة :: وأن ما تحفیه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب :: وإن غداً للناظرين قريب

النموذج الثانى: ويوسف عليه السلام. ما الذى منعه من اقتراف الفاحشة وجميع الظروف المحيطة به تدفعه دفعا إليها؟ لولا مراقبة الله عز وجل. ومن ذلك:

١ - أنه مطلوب وليس بطالب. ثم من التى تطلبه؟ إنها سيدة القصر! وقد صرفت الخدم. وأغلقت الأبواب. وزوجها العزيز فى عمله بصرف أمور الدولة وما أكثر مشاغله.

٢ - وهو شاب مكتمل الرجولة والفعولة وللشباب جنونه وفتونه.

٣ - هو غريب عن البلد لا يوجد من أقاربه ولا من معارفه ما يستحى منهم.

٥ - وهو محدود فى عداد الخدم فلا يخاف أن تهتز صورته إن انكشف أمره.

فالذى منعه من اقتراف الفاحشة إنما هو استشعاره رقابة ربه ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لتصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين^(١).

(١) سورة يوسف. الآيتان رقم (٢٣، ٢٤).

ولما كان من عباد الله المخلصين لم يفلح الشيطان في إغوائه وإغرائه. فإن الشيطان - عليه اللعنة - قد اعترف أمام الله وأمام الملائكة المقربين وأمام آدم وحواء عليهما السلام أنه عاجز أمام المخلصين. فقال ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأَعُوْبَتَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(١). إن رقابة يوسف له عز وجل كانت طوق النجاة الذي وصل به إلى شاطئ الأمان ومرقاً السلام من مستنقع الذنوب والآثام.

النموذج الثالث: كان أستاذ يفضل تلميذه الصغير على بعض تلاميذه الكبار. فكلّموه في ذلك فقال: سأريكم فضلاً! ثم جمع تلاميذه كلهم وأعطى كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال لهم: ليذبح كل منكم الطائر الذي معه في مكان لا يراه فيه أحد. وعادوا وكل منهم قد ذبح الطائر فمنهم من دخل حجرة وأغلق بابها وذبح طائره، ومنهم من ذهب بعيداً عن العمران وذبح طائره، لكن التلميذ الصغير عاد بالطائر غير مذبوح. ولما سأله الأستاذ لماذا لم تذبح طائرك؟ قال: لم أجد مكاناً أكون فيه وحدي بل كان الله معي في كل مكان. فقال الأستاذ: هل عرفتم بماذا فضلكم؟

إن الصالحين يعلمون علم اليقين أنهم في معية الله عز وجل. وشعرهم في ذلك (إذا أردت أن نعصى مولاك. فاذهب إلى مكان لا يراك فيه) وأين هذا المكان الذي يغيب عن الله؟! إنه لا وجود له... وهم يعلمون علم اليقين أيضاً أن المعاصي إذا كان يؤمن أن الله لا يراه فقد كفر برب عظيم. وإذا كان يؤمن أن الله يراه فقد استهان برب عظيم وهما أمران أحلاهما مر أن يكفر الإنسان بربه أو أن يستهين به ونعوذ بالله العظيم من ذلك. جاء في الحديث القدسي: «يا ابن آدم... إن وجدتني وجدت الخير كله. وإن فتنى فتنك وفاتك الخير كله».

النموذج الرابع: يروي أن عمر بن الخطاب كان منحدراً من الجبل فرأى راعياً يمسق غنيمات أمامه. فقال له: بنى شاة من هذه الأغنام. فقال الراعي ياسيدي.. إن الغنم ليست لي وإنما أنا مؤتمن. فقال عمر وهو يختبره: قل لسيدك أكلها الذئب. فقال كيف أقول ذلك وأين الله؟ وأين الله؟ فتولى عمر وهو يبكي وذهب إلى سيده واشتراه وأعتقه. وقال له: أعتقتك هذه الكلمة في الدنيا. وأرجو أن تعتقك من النار يوم القيامة.

(١) سورة ص. الأيتان رقم (٨٢، ٨٣).

درجات المراقبة

والمراقبة على درجتين: درجة المقربين ودرجة أصحاب اليمين... فأما درجة المقربين فهي بأن يستولى جل جلاله وعظمته على قلوبهم فلا يرون غيره ولا يحسون سواه. وربما كان إلى جوارهم من يكلمهم فلا يسمعون صوته ولا يرون شخصه. ولا يستغربون أحد ذلك فالواحد منا قد تسيطر عليه فكرة ما وتملاً بؤرة شعوره. وقد يكون جالسا مع امرأته وأبنائه وهم يخوضون في شؤون الحديث. فإذا سأله ربه لم يستطع أن يقول شيئاً لأنه كان حاضراً غائباً! حاضراً بجسده غائباً بعقله وفكره. قال عز من قائل: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} (١).

زعموا أن قيساً (٢) ذهب إلى بيت ليلى ليأخذ تاراً. ولما قربت له الموقد أخذ النار بيده ولم يحس بحرما. فإذا بلغ الاستغراق إلى هذا الحد فكيف لو أنه أحب الخالق عز وجل. ولما ذكر رسول الله ﷺ أن الناس يحشرون يوم القيامة حفاة عراة. قالت إحدى نساؤه رضوان الله عليهم ينظر الرجل إلى المرأة وتنظر المرأة إلى الرجل! فقال ﷺ لها: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغيبه» (٣). ويوم الزلزلة تعترى الناس حال كنتك الحال. قال تعالى {يَوْمَ تَرُوءُهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} (٤).

ولعل التعبير بكلمة "مرضعة" يوحي بمدى شدة الذهول وهول الرعب الذي يملأ بؤرة الشعور. ذلك أن اللغة تفرق بين الصفة التي للرجل وتشارك معها فيها المرأة بالناء... فنقول للرجل "قائم" وللمرأة "قائمة". وهو "شاعر" وهي "شاعرة" ولكن إذا كانت الصفة خاصة بالمرأة وحدها فإنها تستخدم بدون التاء فنقول "امرأة حامل" بدون تاء بمعنى أن في بطنها جنيناً ذلك أن الرجل لا يحمل ونقول: هي "مرضعة" بمعنى أن لها طفلاً ترضعه لأن الرجل ليس من شأنه الإرضاع ولكننا نقول هي "مرضعة" في حالة ما إذا كان ابنها يرضع فعلاً ويمص ثديها. والأم في هذا الوقت تكون أكثر حناناً وحباً لابنها: فإذا سمعت الزلزلة فإنها تدهل عن رضيعها. ومن ادعى أن له قلبين فهو كذاب.

(١) سورة الأحزاب. الآية رقم (٤).

(٢) هو قيس بن الملوح - الشاعر المعروف، وكان يحب ابنة عمه ليلى وله في غزله أشعار كثيرة.

(٣) الحديث رواه الطبراني. ورواه ثقات والقائلة هي السيدة سودة بنت زمعة رضيت الله عنها.

(٤) سورة الحج. آية رقم (٢).

يروى أن رجلاً اسمه جميل بن معمر الفهري كان يقول: لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد. فلما هزم المشركون يوم بدر^(١) ومعهم جميل هذا. فراه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه فى يده والأخرى فى رجله. فقال له أبو سفيان: ما حال الناس؟ قال انهزموا. قال: فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك؟!! قال: ما شعرت إلا أنهما فى رجلى. فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله يده^(٢)...

وروى عن نبي الله يحيى عليه السلام أنه مر بامرأة فدفعتها فسقطت على الأرض. فقيل له: لم فعلت ذلك فقال: ما ظننتها إلا جداراً... هذه هى درجة مراقبة المقربين المراقبين لله تعالى يستولى على قلبه جلال الله وعظمته فلا يحس شيئاً.

أما درجة أصحاب اليمين وهى أقل من الدرجة الأولى - فإنها تتمثل فى أن يغلب - لا أن يسيطر - على القلب استحضار عظمة الله ولكنهم يقفون على أعتاب الدرجة الأولى ويضرب الإمام الغزالي فى كتابه (إحياء علوم الدين) مثالا للتفرقة بين الدرجتين فيقول: لو أنك كنت جالسا وحدك ودخل عليك الملك فجأة إن جلال الموقف يجعلك تدهش وتحار كيف تتصرف. وهذا بعكس ما لو دخل عليك ابنك فأنت تصلح من هيبتك وتعدل ثوبك أحياناً... الدرجة الأولى سببها الجلال والثانية سببها الحياء.

إن المراقب لله قبل أن يقدم على أى عمل يسأل نفسه: لماذا أقدم على هذا العمل؟ وهل هو لله أم لغيره؟ وهل هو على وفق ما أمر الله به وسنة رسوله ﷺ أم غير ذلك؟... ويروى أن العبد ينشر له ثلاثة دواوين: الديوان الأول لم؟ والديوان الثانى كيف؟ والديوان الثالث لمن؟... ومعنى لم؟ لم فعلت هذا؟ وهل فعلته إرضاءً لله أم إرضاءً للناس؟... ومعنى كيف؟ أفعلته عن علم واقتداءً بسنة الرسول ﷺ أم فعلته عن جهل ولم تبال به لأنك فعلت كما يفعل الناس ولم تدر أكنت على خطأ أم على صواب؟... ومعنى لمن؟ هل جعلت عملك لله وحده أم أردت بذلك الناس؟ فأما الذى يراقب الله فهو الذى يجعل عمله خالصاً لوجه الله تعالى فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا

(١) وقعت غزوة بدر ليلة الجمعة الموافق السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة. وقد وصف القرآن يوم بدر بيوم الفرقان. قال تعالى: (إِن كُفِّرُكُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَافِي الْجُمُعَاتِ) سورة الأنفال. الآية رقم (٤١).

(٢) تفسير القرطبي. صفحة (٥١٩٨). مطبعة كتاب الشعب.

بشرك بعبادة ربه أحداً^(١) وهو الذى لا يجده الله حيث نجاه. ولا يفتقده حيث أمره. ومن ثم يجزل له ربه عطاءه - جنات تجري من تحتها الأنهار فيها ما لا عين رأت. ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر - قال تعالى فى الحديث القدسى: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت. ولا إذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر ثم قرأ رسول الله ﷺ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ...} إلى قوله تعالى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}^(٢).. وهذا الجزاء الجزيل لأنه قام بمقتضى كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأما الذين لا يراقبون الله ويقعون فى المعاصى وبراءون الناس بأعمالهم. فأعمالهم مردودة عليهم واستوجبوا مقت الله. ويقول الله لهم - ما معناه - يا عبدى.. أكلت رزقى. وترفعت بنعمتى. ثم صلت لغيرى. أما سمعت قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمْسَأَلُكُمْ فَاذْعُوبُهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}^(٣) وقال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}^(٤).

اعلم - أخى المسلم - إن الحساب عسير وأنه على مثاقيل الظهر {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}...^(٥) وكل شىء مكتوب. وسوف يتعجب المجرمون من دقة التسجيل ويقولون: {مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا}^(٦). ولقد قال النبى: «إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فسه الطين بإصبعيه. وعن لمسه ثوب أخيه» ولدقة المراقبين لله فى أعمالهم وجعلها خالصة لوجه الله تعالى كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق نظر وثبت. فإن كان لله أمضاه. وإن كان لغير الله منعه إلى أن يحرر النية ويجعلها له عز وجل. فالمؤمن وقاف متأن يقف عند همه وليس كحاطب ليل.

(١) سورة الكهف. الآية الأخيرة.

(٢) حديث صحيح من حديث سهل بن سعد الساعدى - تفسير القرطبي. صفحة رقم (٥١٨٦). طبعة كتاب الشعب.

(٣) سورة الأعراف. آية رقم (١٩٤).

(٤) سورة الحج. الأيتان رقم (٧٣، ٧٤).

(٥) سورة الزلزلة. آية رقم (٨).

(٦) سورة الكهف. الآية رقم (٤٩).

المراقبة والعلم

وهذا يستدعى العلم ليكون المسلم على بصيرة من عمله. ولعل هذا يفسر قول رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١) والعلم في هذا الحديث هو العلم الذي تصح به العبادة وتحرر به النية لابد أن يعلم المسلم متى تكون عبادته سليمة ومتى تكون فاسدة. وأن يعلم أين الحلال فيطلبه وأين الحرام فيتجنبه. ومن هنا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وركعتان من عالم عامل خير من ألف ركعة من عابد غير عالم.: «ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»^(٢).

يحكي أن عابدا كان يتعبد في صومعته. فظهر له فأر وصار يقفز هنا وهناك حول العابد فقتله. فوسوس له الشيطان بأنه قتل نفسا وسفك دما. وماذا عليه لو أنه فتح له باب وأخرجه من الصومعة. وحار العابد كيف يكفر عن هذه الخطيئة؟! ! فوسوس إليه الشيطان قال: اجعل هذا الفأر في قطعة قماش وعلقه في رقبتك وصل به. وفعل العابد ذلك وصلى. وبهذا بطلت صلاته لأنه صلى وهو حامل للنجاسة. ولو أنه كان عالما لما وقع في وسوسة الشيطان.

وعلى المسلم الذي يطلب العلم أن يأخذ علمه من عالم عامل لأن هذا العلم دين. فانظروا ممن تأخذون دينكم. وأخوف ما يخافه الرسول ﷺ كل منافق عليم اللسان^(٣) ولقد أوحى الله إلى داود عليه السلام لا تسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي. أولئك قطاع الطريق على عبادي)... نعم إن الذين يفتنون بغير علم ولا خوف من الله هم قطاع طريق لوصول إلى الله سبحانه وتعالى ولقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات. والعقل الكامل عند ورود الشهوات». قال الإمام علي: الهوى شريك العمى. ومن التوفيق التوقف عند الحيرة^(٤).

(١) حديث شريف رواه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك.

(٢) حديث شريف رواه البخارى من حديث معاوية بن أبي سفيان.

(٣) جاء هذا المعنى في الحديث الذي رواه الترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله: (يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين. يلبسون للناس جلود الضأن من اللين. ألسنتهم أحلى من السكر. وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله أباي يقترون؟ أم على يجترئون؟ في حلفت لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران.

(٤) إحياء علوم الدين. الجزء رقم (٤). صفحة رقم (٣٤٣).

ويذكر صاحب كتاب " إحياء علوم الدين " (١) أن رجلا حاسب نفسه. واقترض أنه يعمل كل يوم ذنب واحدا وكان قد عاش ستين سنة مكلفا. وهاله هذا الكم من الذنوب فشهق شهقة خرجت معها روحه. فسمع الحاضرون قائلا يقول: يا لكى من رقدة إلى الفردوس الأعلى.

إن المراقب لله يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه فى تجارته. وإذا كان الشريك يحاسب شريكه على رأس ماله وعلى مدى الربح أو الخسارة. فعلى المراقب لله أن يحاسب نفسه كذلك. ورأس المال هو الفرائض التى فرضت عليه والربح هو النوافل. والخسارة هى المعاصى. فإذا سلم المسلم رأس ماله - أى الفرائض - فهو من الناجين إن شاء الله. وعليه أن يحمد الله على ذلك. فإن تبقى بعضها فعليه أن يأتى به فدين الله أحق بالوفاء. وإن كان فى أدائها قصور ما فليكثر من النوافل لتجبر هذا الخلل. وإن اشتغل بمعصية الله فعليه أن يبادر التوبة فالتائب من الذنب. كمن لا ذنب له (٢).

قال حاتم الأصم اخترت أن أعرف أربعة أشياء لا أبالى بعدها إن جهلت:

الأولى: علمت أن دين الله تعالى لا يقوم به غيرى فأنا مشغول به (٣).

الثانية: علمت أن رزقى يقوم لى وحدى لا يزيد ولا ينقص فاطمئن قلبى (٤).

الثالثة: علمت أن الموت يطلبنى ولا مفر منه. فاستعدت له (٥).

الرابعة: علمت أن الله مطلع على. فذلك استحيت أن أعصيه (٦).

نسأل الله أن يجعلنا من الذين يراقبون ربهم ويحاسبون أنفسهم.

* * * * *

اليسيط - الوسيط - الأسماء الحسنى - منهاج العابدين... وغير ذلك الكثير والكثير.

(٢) حديث شريف رواه الطبرانى وابن ماجة من حديث عبدالله بن مسعود.

(٣) قال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) سورة المدثر. الآية رقم (٣٨).

(٤) قال تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) ﴿٥٠﴾ فَوَرَّبُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿سورة الذاريات الأيتان رقم (٢٣، ٢٤).

(٥) قال تعالى: (إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَتَرَوْنَ مَثَ فِئَةٍ مَا يُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) سورة الجمعة. الآية رقم (٨).

(٦) قال تعالى: (إِنِّي نَعَكْنَا اسْمُكَ وَأَزَى) سورة طه. الآية رقم (٤٦).

من أخلاق المؤمنين: الصبر

الصبر

من الأخلاق التي يجب إن يتحلى بها المسلم خلق الصبر. فهذا الخلق الكريم تؤدي العبادات. وتنجز الاعمال. ويتميز الصابر عن غيره سلوكا وعملا. ويكتب له الفوز في الدنيا والآخرة.. والعبادات تحتاج في أدائها الى صبر يجعل المسلم يستهين بما يقابله في أدائها من مشاق؛ لأنه ينظر الى ما أعده الله للصابرين من أجر لا يعلم مقداره إلا الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

فالجهد وهو ذروة سنام الإسلام. لا بد له من الصبر. قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢) وقال عز من قائل في نفس السورة: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣) والآيات التي تحت على الصبر في الجهاد ميثوثة في ثنايا القرآن الكريم.

والصوم نصف الصبر كما ذكر رسول الله ﷺ حيث قال: «الصوم نصف الصبر». فالصائم الذي يجوع والطعام بين يديه. ويظما والشراب أمام عينيه لو لم يكن صابرا لأفطر.. وقس على ذلك الزكاة والحج. فالمسلم في حاجة الى خلق الصبر لتتم عبادته، وليكون أهلا لأن يذاب عليها ثوابا هو خير وأبقى - {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ^(٤) ولقد وردت مادة الصبر في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة. وهذا يدل على مكانته وعلو شأنه.

صبر الله على عباده

يكفي الصبر شرفا أن يكون اسما من أسماء الله تعالى؛ فمن أسمائه * الصبور* وهكذا بصيغة المبالغة - فما أكثر صبر الله تعالى على عباده فهو الذي خلقهم، وهو الذي رزقهم،

(١) سورة الزمر آية رقم (١٠).

(٢) سورة الأنفال. الأيتان رقم (٤٥، ٤٦).

(٣) سورة الأنفال. آية رقم (٦٦).

(٤) سورة النحل. آية رقم (٩٦).

وهو الذي صحح لهم أيدانهم. وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة -{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} (١)... الأرض التي تخرج الطعام، والسماء التي ينزل منها الماء، وما بينهما من الهواء. والبحار والأنهار، والفلك التي تجرى بما ينفع الناس، كل هذا من الذي سخره والله؟ إنه الله رب العالمين. فهل أقر الناس بذلك؟! وهل شكروه على هذه النعم؟ إن قارون ومن على شاكلته ينسبون الفضل لأنفسهم وشعارهم كما رده أمامهم إلى النار -{إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} (٢) وكذبوا والله وكذبوا هم أيضا. ففني خلق الله من هو أذكى واعلم. وأقوى وأحزم. ولكن رزقه ليس مثلهم مما يذك على أن الله هو صاحب النعم التي لا تحصى والآلاء التي لا تعد ولا تستقصى. قال الله تعالى في الحديث القدسي: «إني والإنس والجن في نبأ عظيم. أخلق ويعبد غيري. وأرزق ويشكر سواي. خيري إلى العباد نازل وشراهم إلى صاعد». ومع كل ذلك لم يضق بخلقه. ولم يصرف نعمه عنهم؛ لأنه الصبور ولا أحد أصبر على أذى سمعه من الله. قال تعالى في الحديث القدسي: «شمتني ابن آدم ولم يكن له ذلك. وكذبتني ولم يكن له ذلك. أما شتمته إياي فزعمه أن لي صاحبة وولدا. وأنا الله الواحد الأحد الذي لم اتخذ صاحبة ولا ولدا. وأما تكذيبه إياي فزعمه أنني لا أعبد. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته»... أو كما قال رسول الله ﷺ: راويا عن ربه (٣).

عجبت لجاهل عاص :: زه بعض بيانه
ويسمع صوته الحاني :: يسه بقرانه
أنا الثواب يا عبدي :: ترجو لإحسانه
فيعرض من شقاوته :: عا وحي شيطانه
ولو يدري لعاد إليه :: يسكب ماء أجفانه (٤)

ودلائل وحدانية الله وبراهين وجوده لا تحتاج إلى ذكر. وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.

(١) سورة إبراهيم. آية رقم (٣٤).

(٢) سورة القصص. الآية رقم (٧٨).

(٣) الحديث بمعناه في صحيح البخاري في كتاب التفسير - سورة القصص.

(٤) هذه الأبيات جزء من قصيدة ' عشقت الله ' لفضيلة الشيخ / عبد العاطي... انظر كتاب عبد العاطي سليم... شاعرا وأديبا.

يروى أن مجوسيا زار الخليل إبراهيم عليه السلام ولما قدم له الطعام سمي المجوسي على الطعام باسم النار التي يعبدها. ولكن الخليل قال له: قل باسم الله. ولكن الرجل قال: لا اعرف ذلك! ولا أسمى إلا باسم الإله الذي أعبدته. فزجره الخليل الغيور على وحدانية الله وأخرجه من بيته. ونزل الوحي على الخليل: "لم تصبر ساعة على هذا الرجل وهو يأكل من خيرنا ونصبر عليه من ستين عاما" وأدركه الخليل وأعادته وذكر له عتاب ربه فيه وهنا قال الرجل: ربك يعاقبك في أنا برغم أنني لم أذكر اسمه! أشهد أن هذا هو الرب الصبور. وأشهد ألا إله إلا الله وإنك رسول الله. رأيتم كيف يصبر الله على خلقه. وأنه لا يعجل كعجلة أحدنا - {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضِّي إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} (١). وإذا كان الصبر صفة من صفات الله فهو كذلك صفة من صفات الرسل. قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَّرَ أَوْلُوا الْعِزْمَ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} (٢).

خبر الرسول ﷺ في الدعوة إلى ربه

صبر الرسول ﷺ في الدعوة إلى ربه. ولقد جاء الأمر للرسول ﷺ بالصبر في أول مراحل الدعوة؛ لأن الصبر سوف يكون وسيلته في تبليغ أمر ربه وسلاحه في انتصاره على قومه. قال في سورة المدثر وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم: {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} (٣). والآية بنظمها الشريف تضع الهدف من الصبر وهو أن الصبر يكون لله - {وَلِرَبِّكَ} - فليس الصبر من أجل الزيادة ولا الشهرة ولا أن يقال عليه إنه صابر. ولكن الصبر لله ابتغاء مرضاته. وظلما لما أعده عنده للصابرين من الأجر العظيم.

إن طريق الدعوة إلى الله ليس مفروشا بالورود والأزهار والرياحين؛ ولكنه مفروش بالأشواك والمؤامرات والتعذيب البدني والنفسي... ولكن الصبر هو الذي يجعل هذه الأشياء عذبة مستساغة لأنها في طاعة الله.

فليتك تحلو والحياة مريرة :: وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر :: وبينى وبين العالمين خراب

(١) سورة يونس. الآية رقم (١١).

(٢) سورة النمل الآية الأخيرة.

(٣) آية رقم (٧).

إذا صح منك الود فالكل هين :::: وكل الذي فوق التراب تراب (١)

أي أذى لقيه رسول الله ﷺ هو وأصحابه الكرام في سبيل الدعوة. وهو الذي كان قبل أن يبعث محل التقدير، فقد كانوا يلقبونه "الصادق الأمين". كانوا يضعون عنده ودائعهم. ولا يرون أمينا يغنى غناه في ذلك. لقد هلكوا حين دخل عليهم وهم مختلفون في وضع الحجر الأسود في مكانه عندما كانوا يبنون الكعبة. وقالوا: رضينا بالأمين. ولم يعترض أحد عليه ﷺ حينما أمر ﷺ كل زعيم قبيلة أن يأخذ بطرف ثوبه الشريف الذي وضع عليه الحجر. وأن يرفعوا جميعا الحجر. ثم يأخذه هو ﷺ ويضعه في مكانه. ولو أن أحدا غير الصادق الأمين فعل ذلك لسلت السيوف من أعمادها. وسالت الدماء وصار ما لا تحمد عقباه (٢).

هذه هي مكانة رسول الله ﷺ عند قومه قبل أن يبعث. أما بعد البعثة فحدث عما لقيه منهم من أذى نفسي وأذى بدني. قالوا عنه ساحر (٣) وقالوا شاعر (٤) وقالوا مقتر (٥). وغير ذلك كثير. وكانوا يضعون في طريقه الأشواك. ويلقون عليه وهو ساجد بين يدي ربه فريث الجذور (٦). ويكفي أنهم أخرجوه من بيته ومن بلده واستولوا على بيته وباعوه. ومع كل هذا كان رسول الله ﷺ صابراً محتسباً منقاداً قول الله تعالى: {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}. بل صبر رسول الله ﷺ صبراً جميلاً كما قال الله تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا} (٧). وقال أيضاً: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} (٨). ولم يقابل السينة بالسينة ولكنه عفا وصفح الصفح الجميل. حتى حينما أمكنه الله منهم غداة فتح مكة وقال لهم: «ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا عجزاً... أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فانتم الطلقاء» (٩). وهذه نتيجة الصبر وتلك نهايته.

(١) ينسب هذا الشعر للسيدة / رابعة العدوية رضي الله عنها.

(٢) القصة بأكملها ذكرها العلامة صفى الرحمن المباركفوري في كتاب "الرحيق المختوم" - الصفحة رقم

(٥٨) - وهي في سيرة ابن هشام. الجزء الأول. الصفحة رقم (١٠٢). مطبعة الأنوار المحمدية.

(٣) قال تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} سورة ص. الآية رقم (٤)

(٤) قال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مِمَّا تُؤْمِنُونَ} - سورة الحاقة. الأيتان رقم (٤٠، ٤١).

(٥) قال تعالى: {إِنَّ هَذَا إِلَّا بَقْلَةٌ أَنْقَرَتُهَا وَأَعَالَتْ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخِرُونَ} - سورة الفرقان الآية رقم (٤).

(٦) ما في كرش الحيوان المنبوج.

(٧) سورة المعارج. آية رقم (٥).

(٨) سورة المزمل. آية رقم (١٠).

(٩) الرحيق المختوم. الصفحة رقم (٤٠٤).

والصابر الحق هو الذي لا يستطيل مدة صبره حتى لا يتطرق اليأس الى قلبه وذلك كما قال الله تعالى في آخر سورة آل عمران ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ونلاحظ أن الآية الكريمة جمعت بين الفعلين {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا} فمعنى صابروا - والله أعلم - كونوا أكثر صبراً من عدوكم. وذلك أن المشركين كانوا يعتصمون بالصبر في التمسك بالباطل فلا بد أن يتفوق عليهم الموحدون في الاعتصام بالصبر على الحق. قال تعالى على لسان المشركين وهم يتحدثون عن رسول الله ﷺ ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ مِنْهُمْ أَنْ يَمْشُوا بِأَمْشِهِمْ وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾^(٢). وهكذا فانت ترى أن أهل الباطل والشرك يصيرون عليه فأحرى بأهل الهدى والحق أن يصابروهم وأن يتفوقوا عليهم في هذا المضمار "مضمار الصبر".

يذكر ابن كثير - رحمه الله^(٣) - إن جماعة من المشركين ذهبوا الى أبي طالب عم النبي ﷺ وقالوا له: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فانصفنا من ابن أخيك محمد. فمره أن يكف عن شتم آلِهتنا ونحن ندعه وإليه. فبعث أبو طالب الى رسول الله ﷺ فجاء وجلس أبو جهل - عليه اللعنة - بين رسول الله ﷺ وبين أبي طالب حتى لا يبرق أبو طالب لابن أخيه لو جلس الى جواره. وقال أبو طالب: يا محمد.. هؤلاء مشيخة قريش وسرايتهم. وقد سألتك أن تكف عن شتم آلِهتهم ويدعوك وإلهك. فقال الرسول ﷺ: «أفلا أدعوهم الى ما هو خير لهم؟ قال: وإلام تدعوهم؟ قال ﷺ: أدعوهم أن يقولوا: «كلمة تدين لهم بما العرب ويملكون بما العجم». فقال أبو جهل - عليه اللعنة - فما هي؟ وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها فقال ﷺ: «تقولن لا إله إلا الله». فنفروا وقالوا: سلنا غيرها فقال ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» فقاموا غضاباً وقالوا: والله لنشتمك وإلهك الذي أمرك بهذا... وهذا نموذج من صبره ﷺ على أذى قومه. ولقد صبر أصحابه رضي الله عنهم على الإيذاء وبحسبك أن تذكر لك بعض الأسماء وأنت عليم بما جرى لهم: فهذا بلال. وهذا عمار وأبواه. ومن قبله ياسر وسمية. وغير هؤلاء صبروا على ما أودوا به فجعلهم الله سادة في الدنيا والآخرة بصبرهم على التمسك بدعوتهم. ولا يحسن أحد أن الصبر لا يكون إلا على المكروه فقط بل يكون

(١) سورة الفرقان آية رقم ٤٤.

(٢) سورة ص الآية رقم ٦.

(٣) هو العلامة الحجة إسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير الدمشقي الشافعي، ولد سنة ١٠٧ هـ هو توفي عام ٧٧٤ هـ وله تصانيف كثيرة من أشهرها: تفسير القرآن الكريم - والبداية والنهاية - وقصص الأنبياء... وغير ذلك كثير.

أيضا على النعمة. والصبر عليها يكون بإداء الشكر لوائها عز وجل فلا يبطر بها ولا ينسبها الى نفسه. فقال تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ} (١) وقد رأينا نموذجا لمن نسب فضل جمع المال الى نفسه وهو قارون. فلنذكر نموذجا آخر وكيف شكر الله تعالى على منحه إياه. ذلكم هو سليمان عليه السلام فقد أعطاه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. وعلمه منطق الطير. وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب وسخر له الشياطين يفعلون له ما يشاء من محاريب. وثمانييل وجفان كالجواب (٢) وكان في ملكه من يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يريد إليه طرفه... فمأذا قال نبي الله سليمان مع هذا الملك الواسع؟ قال: {هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَكْفُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} (٣).

ولا شك أن هذه مكانة عالية لان كل نفس تحب أن ينسب الخير إلى نفسها إلا من عصم الله تعالى. وكون النعمة ابتلاء مرا جاء في قول الله تعالى: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} (٤). يشعرون. وقال في آية أخرى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْحَيَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ}. وليست زيادة المال وكثرة البنيين خيرا محضاً بل قد يكون ذلك ابتلاء من الله تعالى. ذلك أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب. ولا يعطي الدين إلا من أحب. فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه. ومن عباد الله من لو سأل الله لأعطاه (٥). ومنهم من لو سأله علاقة سوط لم يعطه سؤاله! ذلك لكرامة الأول. ولا لمهانة الثاني. ولكنها الدنيا التي ليست بدار جزاء ولكنها دار تكليف وابتلاء.

ولقد جاء الأمر صراحة للرسول وهو في الوقت ذاته أمر لكل فرد في أمته. قال تعالى: {وَلَا تُمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} (٦).

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله فراه مضجعا على حصير قد أثر في جسده الشريف. وتأثر الفاروق بما يراه وبما يعلمه عن كسرى وقيصر

(١) سورة العلق. الآيتين رقمي (٦، ٧).

(٢) فصاع كبير كلها الأحواض التي يجمع فيها الماء. والمعنى أنها كبيرة جدا.

(٣) سورة النمل الآية رقم (٤٠).

(٤) سورة الفجر. الآيتان رقم (١٥، ١٦).

(٥) وقد قيل في هذا المعنى: إن لله عبدا لو رفعوا إليه حواجيبهم لتضيت حوائجهم... نسأل الله أن نكون منهم اللهم أمين.

(٦) سورة طه. الآية رقم (١٣١).

وكيف ينامون على فرش الحرير وبكى. وسأله الرسول ﷺ ما يبكيك يا عمر؟ فقال: يا رسول الله كسرى وقيصر ينعمان وأنت كما أرى؟ فقال سيد الزاهدين محمد ﷺ: «أو في شك يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»^(١)... ولو كانت الدنيا دليل رضا الله أو سخطه لكان رسول الله ﷺ أغنى الناس وهو الذي راودته الجبال الشم أن تكون ذهباً بين يديه. ولكنه رضي أن يعيش مسكيناً وأن يحشر في زمرة المساكين.

قال أحد العارفين: "البلاء يصير عليه المؤمن. والعافية لا يصبر عليها إلا صديق. ولما قحت الدنيا للمؤمنين وامتألت بيوت أموالهم وخزائنهم بالمال قال أحدهم: "ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا. وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر". ويشرح الإمام الغزالي ذلك فيقول "إن الجائع عند غيبة الطعام اصبر منه إذا حضرت الأطعمة اللذيذة وقدر عليها. ومن العصمة إلا يجد. وبذلك قد يكون الحرمان نوعاً من العصمة".

ومن بعض ثواب الصابرين ما ورد من نصوص قرآنية ونبوية:

١ - حفظ الله الصابرين من كيد الأعداء وتدبيرهم. قال تعالى: {إِنْ تُمْسِكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} (١).

٢ - بشارة الله لهم قال تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} (٢). وقد رُتبت الآية ثلاثة أشياء على الصبر. وهي الصلاة من الله بمعنى الثناء عليهم. والأمن من عذاب الله ثم رحمته لهم. ثم الهداية والتوفيق لصالح الأعمال... وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية فقال: "نعم العدلان ونعمت العلاوة"^(٣)... أي إنه شبه الأشياء الثلاثة وهي: الصلاة من الله والرحمة والهداية. بثلاثة أشياء يحملها البعير وهي: العدلان والعلوة.

(١) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح بلفظ: "أما ترضى يا ابن الخطاب أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا" ورواه ابن حبان في صحيحه أيضاً.

(٢) سورة آل عمران. الآية رقم (١٢٠).

(٣) سورة البقرة. الآيتان رقم (١٥٥، ١٥٦).

(٤) العدل بكسر العين ما يوضع على جانب البعير ليكون معادلاً للعدل في الجانب الآخر. والعلوة ما يوضع على ظهر البعير.

ذكروا أن أم سلمة أم المؤمنين ^(١). قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ جاءها زوجها أبو سلمة من عند رسول الله ﷺ وقال لها: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصيب أحد من المسلمين شيء فيسترجع ^(٢) عند المصيبة. ثم يقول: اللهم أوجرنني في مصيبي واخلف لي خيرا منها». ألا فعل ذلك به. قالت أم سلمة: فحفظت ذلك. فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أوجرنني في مصيبي واخلف لي خيرا منها. فلما رجعت الى نفسي وقلت: من أين لي من هو خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن على رسول الله ﷺ وأنا ادبغ إهابا (جلدا). فغسلت يدي من القرظ وأذنت له. ووضعت له وسادة حشوها من الليف فقعد عليها. فخطبني إلى نفسي. فما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله. ما بي إلا يكون بك الرغبة. ولكني امرأة بي غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئا تكرهه فيعذبني الله به. وأنا امرأة قد دخلت في السن ^(٣). وأنا ذات عيال. فقال ﷺ: «أما ما ذكرت من الغيرة الشديدة فسوف يذهبها الله عنك. وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك. وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي». فقالت: سلمت لرسول الله ﷺ وقالت: فقد أبدلتني الله خيرا من أبي سلمة رسول الله ﷺ ^(٤)...

(١) هي السيدة الطاهرة هند بنت أبي أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. وهي بنت عم خالد بن الوليد وهي من المهاجرات الأول. زوجها الأول هو أبو سلمة ابن عبد الأسد المخزومي. أخو النبي من الرضاة. تزوجها النبي بعد وفاة زوجها في سنة أربع من الهجرة. وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين. وكانت من أجمل النساء وأشهرهن. وروت عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة.

(٢) أي يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) تقصد أنها كبيرة في السن.

(٤) الحديث بمعناه ذكره المنذرى في الترغيب والترهيب. الجزء رقم ٤ (الصفحة رقم ٣٣٦). طبعة دار الريان للتراث - والحديث بتمامه في معتمد الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه.

مجالات الصبر

من مجالات الصبر الذي يتبغى للمؤمن أن يكون صابراً فيها ما يأتي:

١ - الصبر على أداء العبادة: وقد قدمنا طرفاً من ذلك - ونزيد هنا أن العبادة تستدعي الصبر قبل الإتيان بها. وفي أثناء تأديتها. وبعد الانتهاء منها... فأما الصبر الذي يكون قبل الإتيان بها فيكون ذلك بإخلاص ومجاهدة النفس وجعل الهدف من هذا العمل إنما هو الله تعالى. فانه عز وجل أغنى الأغنياء عن الشرك. وهذا يستدعي صبراً في قهر النفس وتنقيتها من أية شائبة من الشوائب التي تعرض للإنسان وهو ينوى القيام بأعمال العبادة. يقول رسول الله ﷺ: «الناس هلكت إلا العالمين. والعالمون هلكت إلا العالمين. والعالمون هلكت إلا المخلصين والمخلصون على خطر عظيم». ويقول الله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} ^(١) فقدم الصبر على العمل.

والصبر في أثناء العمل يستدعي الإتيان على أكمل وجه وفق ما شرع الله وما سنه رسول الله ﷺ. فلا تفتقر العزيمة ويؤديه الإنسان كيفما اتفق. ذلك لان الله لا يقبل من العمل إلا إذا كان موافقاً لشرعه ^(٢) والله لا تأخذه سنة ولا نوم. وهو العليم الذي لا يعذب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. ولعل ذلك يفهم من قوله تعالى {نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا} فقدم العمل هنا على الصبر.

وبعد الانتهاء من العمل يكون الصبر بعدم المن والأذى والتحدث به بقصد الشهرة والرياء. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} ^(٣). وخير مثال على ذلك إبراهيم عليه السلام الذي صبر على ابتلاء الله له بذبح ولده إسماعيل. وهو الذي أعطاه الله إياه على الكبر ثم هو الغلام الحليم. وقد بلغ معه السعي... فصبر على هذا الابتلاء. وعرض الأمر على ابنه إسماعيل عليه السلام. وكان الغلام عند حسن ظن أبيه. فقد قال له: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} ^(٤). ولقد فهم إسماعيل عليه السلام أن رؤيا أبيه وحى. فقال: "يا أبت افعل ما تؤمر" ولم

(١) سورة هود. الآية رقم (١١).

(٢) سئل الفضيل بن عياض عن العمل المقبول فقال: "أصوبه وأخلصه". أي ما كان على سنة النبي وخالصاً لوجهه تعالى.

(٣) سورة البقرة. الآية رقم (٢٦٤).

(٤) سورة الصافات. الآية رقم (٢).

يقول " يا أبت افعل ما رأيت ". وكانت نتيجة صبر الوالد والولد أن فداه الله بذيح عظيم. وأعطى الوالد ولد آخر هو إسحق وبشر سارة امرأة إبراهيم الخليل بإسحق. وبأن إسحق سوف يلد ولدا هو يعقوب. فهي بشارة مزدوجة وليست واحدة. ولنا أن نفهم من ذلك بشارة ثالثة هي أن تعيش سارة لتزى الابن والحفيد. فهي بشرى واحدة وليست واحدة.

٢ - المجال الثاني هو مجال الصبر على شدائد الحياة ومشقاتها: فالإنسان في هذه الحياة لم يأخذ على الله عهداً أن تكون حياته خيراً كلها. وإنما هي مزيج من الخير والشر. من الصحة والمرض. من الفقر والغنى. من السراء والضراء... قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(١). ومن رحمة الله تعالى أن قال: ﴿بَشِيرٌ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ كل الخوف. وليس كل الجوع أو كل الثمرات فهذه الدنيا. وتلك طبيعتها...

ومكلف الأيام ضد طباعتها :: متطلب في الماء جذوة نار^(٢)

وإمام الصابرين في هذا المجال هو أيوب عليه السلام. فقد كان صاحب نعمة وكان له أولاد. وكان صحيح البدن معافى. فابتلاه الله بالمرض في جسمه ووفاة أولاده وذهاب أمواله. فصبر ولم يشك ولم يتبرم. واستمر على ذلك ثماني عشرة سنة. ثم توجه الى الله بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٣). وانظر الى أدبه العالي في الدعاء وتعلم منه. فهو يقول: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ وهذا دعاء مجمل فلم يقل: " اعتل بدني وساءت صحتي وفقدت موالى ومات أولادي ". وانظر الى التعبير " مسني " وانظر - كذلك - الى قوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لتدرك كيف كان مؤدباً في دعائه ولم يقترح على ربه شيئاً معينا. وكانت نتيجة هذا الصبر أن قال الله له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾. وأعاد الله له أهله ومثلهم معهم. وأعاد عليه أمواله... وهذه نتيجة الصابرين. ولذلك مدحه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نُّعَمُّ الْعَبْدَ إِنَّهُ أُوَّابٌ﴾^(٤). فقد مدح الله عبوديته. وعلل ذلك بأنه كثير الرجوع إليه سبحانه. ولا ننسى أيضاً صبر نبي

(١) سورة البقرة. الآية رقم (١٥٥).

(٢) وقال آخر:

هي الدنيا تقول بملاء فيها :: حذار حذار من بطشي ومن فكسي
فلا يهـمـركم منى الهـمام :: فقبولي مضحك والقـمـل مـكـسي

(٣) سورة الأنبياء. الآية رقم (٨٣).

(٤) سورة ص. الآية رقم (٤٤).

الله يعقوب عليه السلام على ولده يوسف. حيث قال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} (١) وقال أيضا في صبره على يوسف وأخيه الذي استبقاه يوسف معه. وعلى ابنه الأكبر الذي لم يعد مع إخوته {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (٢) وصبر يعقوب عليه السلام على يوسف صبر عظيم. لما يأتي:

١ - فهو الصغير. وللصغير مكانته في قلب أبيه. وقد سئل أحد العقلاء عن أحب أولاده إليه فقال: " صغيرهم حتى يكبر. وغائبهم حتى يحضر. وسقيهم حتى يشفي ".

٢ - وهو الذي حرم عطف الأم وهو مازال صغيرا.

٣ - وهو الذي تنبأ له والده بأنه سوف يجتنيه ربه ويعلمه من تأويل الأحاديث. ويتم نعمته عليه كما أتمها على أبيه من قبل إبراهيم وإسحق. وذلك حينما قال له: {يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} (٣).

٤ - وهو الجميل الذي أذهل جماله النسوة فقطعن أيديهن بمجرد رؤيتهن له.

٥ - وهو الغائب الذي لا يعرف له مكانا ولا مصيرا.

٦ - وهو الذي غدر به أخوته وهم - في الوقت ذاته - أبنائه:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة :: على النفس من وقع الحسام المهند (٤)

ولم يشك يعقوب - عليه السلام - يثه وحزنه إلا الى الله. وابتضت عيناه من الحزن. وكانت نتيجة صبره ان جمع الله شمله بأولاده وأعاد عليه بصره. ودخل بنوه مصر آمنين وعلى أن يكتفيا ابنه يوسف (٥).

(١) سورة يوسف. الآية رقم (١٨).

(٢) سورة يوسف الآية رقم (٨٣).

(٣) سورة يوسف. الآية رقم (٤).

(٤) الحسام هو السيف.

(٥) ومن مجالات الصبر أيضا الصبر في البعد عن الحرام. فترك الإنسان لشهوته وغلبة نفسه أمام مغريات الحياة يعد نوعا من أعظم أنواع الصبر. ولنا في يوسف خير شاهد ودليل. فقد هبت له أمسياب الوقوع في الرذيلة. لكنه صبر على ذلك ففاز ونجا. قال تعالى حاكيا قوله: " معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ".

مكانة الصبر^(١):

إن كثيراً من الأخلاق التي ينبغي أن يتصف بها المسلم تتركز في أساسها على الصبر... فالحلم مثلا لا يعرف إلا إذا صبر الإنسان على من يؤذيه. فالحلم نوعاً من أنواع الصبر... والشجاعة التي يتفاخر بها ويدعيها حتى من ليس بأربابها وذلك لشرفها ليست إلا نوعاً من أنواع الصبر. فلو لم يصبر المقاتل على شدائد الحرب لم يكن شجاعاً؛ فالشجاعة نوع من أنواع الصبر... والعفة نوع من أنواع الصبر؛ لأنها في حقيقتها الصبر على شهوة البطن والفرج. ولو لم يتحقق هنا الصبر لم تكن عفة.

وقس على ذلك بقية الصفات الأخرى لتدرك كيف أن الرسول قال: «الصبر نصف الإيمان»^(٢).

نسأل الله أن يجعلنا من عباده المخلصين الصابرين. إنه نعم المولى ونعم النصير..

* * * * *

(١) نكر الله في القرآن الكريم ثواب الصابرين. من ذلك:

(أ) أن لهم الخير... قال تعالى: {وَلَمَّا صَبَرْتُمْ لَكُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ} - سورة النحل، الآية رقم (١٢٦).

(ب) أنهم محفوظون من الله... قال تعالى: {وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} - سورة آل عمران، الآية رقم (١٢٠).

(ج) أنه من عزائم الأمور... قال تعالى: {وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} - سورة آل عمران، الآية رقم (١٨٦).

(د) أن الله معهم... قال تعالى: {اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} - سورة البقرة، الآية رقم (١٥٣).

(هـ) أن الله يحبهم... قال تعالى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} - سورة آل عمران، الآية رقم (١٤٦).

(و) أن لهم الجنة... قال تعالى: {وَجَزَاءُكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ جَنَّةٌ وَحَرِيرٌ} - سورة الإنشراح، الآية رقم (١٢).

(ز) أن لهم الفوز... قال تعالى: {إِلَىٰ جَزَائِهِمُ النَّارُ بِمَا صَبَرُوا فَمَنْ أَتَاهُمْ فَمَنْ الْفَائِزُونَ} - سورة المؤمنون، الآية رقم (١١١).

(٢) رواه الترمذي.

من أخلاق المؤمنين : الخوف من الله

الخوف من الله

هذا الخلق النبيل " خلق الخوف من الله تعالى " إذا تمكن من قلب المؤمن وهبه الأمن والطمأنينة يوم يفرغ الناس ويخافون. وذلك وعد الله تبارك وتعالى: «لا أجمع علي عبدي خوفين. وأمين. فمن خافني في الدينأ أمنته في الآخرة. ومن أمنني في الدينأ خوفته في الآخرة»^(١). فالخوف من الله عز وجل يقف حاجلا بين العبد وبين المعاصي. فإن عذاب الله شديد وأن الله لا يغفل ولا ينالم. وهو سريع الحساب شديد العقاب. فيكف يده. وكذلك إذا مد بصره إلي المحرمات أو تطلع إلي العورات ذكر خوف خوفه من الله فيض بصره. وإذا وسوس له الشيطان معصية ما فإن الخوف من الله سرعان ما يرده عن متابعة الشيطان ويرد الشيطان عن إغوانه: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} ^(٢).

جاء رجل إلي إبراهيم بن أدهم ^(٣) وقال له أني مسرف علي نفسي. فأعرض علي ما يكون زاخر لها. فقال له إبراهيم أن استطعت أن تفعل واحد من خمسة أشياء فإن المعصية لا تضرك قال الرجل هاتها يرحمك الله قال إبراهيم أن تعصي الله فلا تأكل من رزق الله و لا تسكن في بلاده وإذهب إلي مكان لا يراك فيه وإذا جاءك ملك الموت فقل له أخرني ساعة حتى أتوب وأعمل صالحا. وإذا جاءتك الزبانية يوم القيامة لتأخذك إلي النار فلا تذهب معهم فقال الرجل وكيف أستطيع ذلك ياإبراهيم؟ فقال له: يا هذا إذا كنت تأكل من رزق الله وتسكن في بلاده. ولا تغيب عنه طرفة عين و أقل من ذلك. لا تستطيع أن تهرب من الموت. ولا تستطيع أن تمتنع عن الزبانية فكيف تعصي الله؟ فبكي الرجل وتاب إلي الله تعالى. وذلك لأن إبراهيم ذكره بنعم الله ونقمه وخوفه وعذابه. تاب الرجل وأتاب. وفي ظلال الغفلة عن الله وعدم الخوف منه. تحت هذا ستار الكثيف يفقد المرء دينه ويكون ألعبوبة في يد الشيطان :- «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولكن المؤمن حقا حين يسرق وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»

(١) راوه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة.

(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (٢٠١).

(٣) هو أبو أسحاق بن إبراهيم بن منصور. كان من أبناء الملوك فخرج يوما متصيذا. فأثار أبوه في طلبه. فهتف به هاتف: يا إبراهيم لهذا خلقت أم بهذا أمرت؟ فنزل عن دابته وطلب العلم. وأقبل علي العبادة وصحب الفضيل بن عياض وسفيان الثوري. وكان يأكل من عمل يده... ومن أقواله * أطلب مطعمك ولا حرج عليك إلا تقوم الليل وتصوم النهار * توفي بالشام بعد رحلة جهاد طويلة و مشيرة ويعدده الصوفية من أكابرهم وساداتهم.

(١) ولكن المؤمن حقا هو الذي يخاف قيامه بين يدي ربه. فيقف خوفه سدا منيعا بينه وبين معاصي الله أن الشيطان هو الذي يزين المعصية ويحببها إلى مرتكبها. فإذا خف ميزان الإيمان ورجحت كفة الشهوة البهيمية انقلب الإنسان كالثور الخائج لا يذكر إذا امتلأ القلب بالخوف من الله وأن ربه سوف يسأله عن الفتيل والقطمير وعن الصغير والكبير وعن الذرة وما دونها (٢). كفف عن الحرام وقنع بالحلال.

ولنذكر بعض مواقف الصحابة - رضي الله عنهم - وهم على قرب عهدهم برسول الله ﷺ وأنهم يعيشون معه ﷺ وكيف يخافون ربهم لتكون لنا فيهم وفيه ﷺ القدوة الحسنة هذه عائشة أم المؤمنين مع منزلتها العالية (٣) وكيف كانت تخاف الله؟ دخل عليها رسول الله ﷺ فوجدها تبكي وسألها عن سبب بكائها فقالت: ذكرت النار فبكيت. ثم قالت لرسول الله ﷺ هل تذكرون أهلكم يوم القيامة؟ فقال لها المعصوم ﷺ أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يتقل. وعند تطاير الكتب حتى يقال هاؤم اقرءوا كتابيه. وحتى يعلم أين يقع كتابه أيمينه أو في شماله. وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حافته كالليب وحسك (٤) كثير يحبس الله بها من شاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا (٥). وهذه المواقف جدية بأن ينسى الإنسان فيها أهله وولده وأقرب المحبين إليه لأن لكل امرئ منهم شأن يغنيه - {يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} (٦). فعند الميزان تشخص الأبصار وتتخلع القلوب حتى يعلم من توزن أعماله هل رجحت كفة حسناته أم كفة سيئاته؟ - {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ * نَارٌ حَامِيَةٌ} (٧).

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) أكد القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى: يا بني عن تلك إنها متقال حبه من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله أن الله لطيف خبير * سورة لقمان الآية رقم (١٦) وقال أيضا * من يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الأيتان رقم (٧، ٨).

(٣) فهي التي نزلت براوتها من السماء، وهي حبيبة حبيب الله، وهي مع رسول الله ﷺ إن الله في الجنة.

(٤) الكلايب: خطاطيف. والحسك: ثوب وجمعة حسكه.

(٥) رواه أبو داود والحاكم، وقال صحيح على شرطهما لولا الإرسال فيه بين الحسن وعائشة.

(٦) سورة عبس. الآيات أرقام (٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧).

(٧) سورة القارعة.

والموقف الثاني عند تطاير الكتب التي سجلها الملكان كما عملها الإنسان فلكل إنسان كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. والمؤمن التقى هو الذي يأخذ كتابه بيمينه. ويا لها من سعادة غامرة. إنها الفوز بالجنة والنجاة من النار - {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} ^(١) وأما الفاجر الشقي الغوي فيأخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره وعندئذ يندم ولينت ساعة ينفعه الندم فيقول: {يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَهٗ * وَلَمْ أُدْرَ مَا حِسَابِيَهٗ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أُغْنِي عَنِّي مَالِيَهٗ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ} ^(٢). ويأتي النداء من الله تعالى للزبانية {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ} ^(٣). ويا لها من سلسلة ما أطولها وما أشدها لو سقطت منها حلقة على جبال الدنيا لذكرتها. فكيف بالإنسان الضعيف؟

أعادنا الله من ذلك.

والموقف الثالث: عند المرور على الصراط: وهو جسر ممدود على ظهر جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف فيه كلاليب معدة لتخطف من وكلت بخطفه من كل جبار عنيد مجترئ على حدود الله. ومملوء بالشوك وياله من الشوك ليس كاشواك الدنيا. وذلك للعاصي...

أما المؤمن فيمر عليه كالبرق الخاطف ومعه نوره الذي يهديه في هذا الموقف. عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: كان الكفيل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله. فأتته امرأة فأعطاها ستين دينار علي أن يظاها. فلما راودها عن نفسها ارتعدت وبكت. فقال ما يبكيك؟ قالت لأن هذا عمل ما عملته وما حملني عليه إلا الحاجة. فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله فأنا أحمري بذلك منك. اذهبي فلكي ما أعينك والله ما أعصيه بعدها أبدا. فمات من ليته فأصبح مكتوبا علي بابه أن الله قد غفر للكفيل. فعجب الناس من ذلك» ^(٤).

(١) سورة آل عمران. الآية رقم (١٨٥).

(٢) سورة الحاقة. الآيات أرقام (٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩).

(٣) سورة الحاقة. الآيات أرقام (٣٠، ٣١، ٣٢) - ووصف رسول الله ﷺ هذه السلسلة بقوله: (لو وضعت حلقة منها على جبال الدنيا لأذابتها). وقال ابن عباس رضي الله عنه السلسلة سبعون ذراعا بذراع الملك لا بذراع البشر)... نسأل الله العفو والعافى.

(٤) الترغيب والترهيب. جزء رقم (٤). صفحة رقم (٢٥٨) - رواه الترمذى وقال حديث حسن.

ولقد كان رسول الله ﷺ أخشى الناس لله وأخوفهم منه مع ما غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك شابت رأسه من خوفه من الله تعالى. قال أبو بكر: يا رسول الله.. أراك شبت. قال: شيبتي هود وأخواتها: (الواقعة) و(المراسلات) و(عم يتساءلون) و(إذا الشمس كورت)... ولعلك تدرك أن هذه السور فيها ذكرا للنار وأحوال يوم القيامة. فهل يسمع مسلمو اليوم هذه السور كما سمعها رسول الله ﷺ أن هم قومنا من السماع جمال صوت القارئ وطريقة أدائه:

فهمهم إذا يتلى :: جمال الصوت والمنعم
 فهل يعود المسلمون إلى ربهم إلى يخافونه ويخشون عذابه؟

أيا شابا لرب العرش عاصي :: أتدرى ما جزاء ذوى المعاصي
 سعير للعصاة لها زفير :: وغيظ يوم يؤخذ بالتواصي
 فإن تصير على النيران فاعصه :: وإلا كن عن العصيان قاصي^(١)
 وفيهم قد كسبت من المعاصي :: رهقت النفس فاجهد في الخلاص^(٢)

جزاء الخائفين:

تعالوا بنا نستعرض بعض آيات من القرآن الكريم التى تتحدث عن الخوف من الله وماذا أعد الله لهم؟ وبماذا وصفهم؟... يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٣). فقد قصرت الآية خوف الله تعالى على العلماء وبالتالي فإن الجهلاء لا يخشونه عز وجل فمن الذى يرضى لنفسه أن يكون من الجاهلين؟! ويقول تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾^(٤) فقد جعلت الآية الجنة ورضا الله للذين يخافون الله. وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾^(٥) فالذى يخشى قيامه بين يدي ربه للسؤال. له عند ربه جناتان وليست جنة واحدة.

والمراد الخوف الذى يحجز الإنسان عن معاصي الله. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ

(١) يعنى بعيدا عنها.

(٢) كتاب مكاشفة القلوب للإمام الغزالي. صفحة رقم (٣١).

(٣) سورة فاطر. الآية رقم (٢٨).

(٤) سور البينة. الآية رقم (٨).

(٥) سورة الرحمن. الآية رقم (٤٦).

مَقَامَ رَبِّهِ وَتَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ - فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ»^(١). وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}^(٢)... قالت السيدة عائشة: (سألت رسول الله ﷺ هل معنى هذه الآية الرجل يسرق ويُرزى؟ قال: لا.. بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه^(٣)).

وتعالوا فلنجل^(٤) في رياض السنة النبوية ولنقطف من أزهارها بعض ما جاء في الخوف من الله تعالى... ذكر رسول الله ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله فقال: «ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه دمعا. ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله». ^(٥) وقال ﷺ: «ما من عبد مؤمن تخرج من عينه دمعة وإن كانت مثل رأس الذبابة من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حرمه الله على النار». ^(٦) ولذلك كان بعض الصالحين إذا بكى من خشية الله أخذ دموعه فمسح بها وجهه وما استطاع من جسده لعل الله أن يحرم ذلك على النار.

قال ﷺ: «إذا اقتشع قلب المؤمن من خشية الله تحات - سقطت - عنه خطاياها كما يتحات عن الشجرة ورقها»^(٧).

ومن الأشياء التي تعين على الخوف من الله تعالى زيارة المقابر. فهل يتعظ الناس بمن سبقوهم إلى المقابر؟ وأنهم لم يأخذوا من الدنيا شيئا معهم! وأنهم تركوا ما جمعوه من حلال أو من حرام وراءهم ظهريا! ثم سئلوا عنه بينما تركوه لمن بعدهم، وربما تنعم به من كان له عدوا!!! نعم قد يرث الإنسان عدوه فيبخل عليه حتى بدعوة يدعو له بها - الزوجة أليست تنعم بما ترثه من زوجها وربما تزوجت بعده آخر وربما كان بينه وبين الأول عداوة. البنت أليست ترث أباه وتتنعم بهذا الميراث مع زوجها وربما كان بينهم عداوة. الابن أليس ينعم بما يرثه عن أبيه وتشاركه امرأته التي كانت تكره حماها مثلا - والد زوجها - بل القرآن الكريم أظهر لنا ذلك. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ

(١) سورة النازعات. الأيتان رقم (٤٠، ٤١).

(٢) سورة المؤمنون. الآية رقم (٦٠).

(٣) أخرجه الترمذى. وحسنه الألبانى.

(٤) يعنى نمشى فى رحاب السنة.

(٥) رواه البخارى.

(٦) رواه ابن ماجه والبيهقى.

(٧) رواه البيهقى. وفيه: (إننا اقتشع جلد العبد).

أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُواهُمْ} (١)

هل يعي هذا الذين يتكالبون على الدنيا ويتركونها لمن بعدهم لقمة سائغة بينما هم يشقون بحسابها؟ هل نذكر هذه المعاني ونحن نزور القبور فنعمل لهذا المكان ما يجعله روضة من رياض الجنة بدلا من أن يكون حفرة من حفر النار؟... سأل تلميذ أستاذه النصيحة فقال له: احمل قبرك معك أينما كنت! ولم يفهم التلميذ مغزى هذه النصيحة فقال: وكيف أحمل قبري معي! فقال: أعنى أن تحمل فكرته لا أن تحمل تربته... فإذا ما حمل الإنسان فكرة القبر. وأنه بيت الوحشة وبيت الوحدة. وأن العمل الصالح هو الذي يجعله بيت الأُنس وبيت التمتع بروضة من رياض الجنة كان ذلك أدعى إلى الاستعداد له.

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه^(١) قال: دخل رسول الله ﷺ مصلا ف رأى أناسا كأنهم يكثرشون (يضحكون). فقال: «أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات - الموت - لشغلكم عما أرى». فأكثر ذكر هادم - قاطع - اللذات فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول: «أنا بيت العربة... أنا بيت الوحدة... أنا بيت الدود. فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحبا وأهلا. أما إنك كنت أحب من يمشى على ظهري إلي. فإذا وليت اليوم فسرى صنيعي بك. فيتسع له مد البصر ويفتح له باب إلى الجنة... وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحبا ولا أهلا. أما إنك كنت أبغض من يمشى على ظهري إلي. فإذا وليت اليوم فسرى صنيعي بك. قال: فيلتأم - يضم بعضه إلى بعض - حتى تختلف أضلاعه. قال: فأخذ رسول الله ﷺ أصابعه فأدخل بعضها جوف بعض. قال: ويقيد له سبعون تينا. لو أن واحد منها نفخ في الأرض ما أنبت شيئا ما بقيت الدنيا فتنهشه وتخدشه حتى يفضى به الحساب»^(٢).

(١) سورة التغابن. الآية رقم (١٤).

(٢) روى الصحاحي الجليل بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأجر رضى الله عنه. شهد الخندق وبيعة الرضوان وكثيرا من غزوات الرسول ﷺ. عرضه أبوه على النبي يوم أحد وهو ابن ثلاث عشرة سنة ليكون مع الجيش. لكن رسول الله ﷺ رده لصغر سنه. توفي سنة (٦٤) هـ وقيل سنة (٦٣).

(٣) الحديث بمعناه ذكرى المنذرى في الترغيب والترهيب. الجزء رقم (٤). الصفحة رقم (٣٦٢).

ومن هنا فإن أكيس الناس ما كان ذاكرة للموت مستعداً لما بعده^(١). فالموت هو الخطوة الأولى إلى عالم الخلود. وإنما لجنة أبداً أو النار أبداً... عجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح. وعجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك. وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها. وعجبت لمن أيقن بالحساب غذا ثم لا يعمل.

روى أن علي بن أبي طالب كان عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا} (١). فقال: ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحال الذهب شرك نعالم نور يتلألأ. كل خطوة منها مد البصر فينتهون إلى شجرة بيع من أصلها عينان. فيشربون من إحداها فتغسل ما في بطونهم من دنس. ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً. وتجري عليهم نضرة النعيم. فينتهون أو فيأتون باب الجنة فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب. فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين بأعلى فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل. فتبعث قيمها - خادمها - فيفتح له. فإذا رآه خر له. قال مسلمة: أراه قال: ساجداً. فيقول: ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك. فيتبعه ويقفوا أثره فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعنقه ثم تقول: أنت حي وأنا حيك.. وأنا الخالدة التي لا أموت.. وأنا الناعم فلا أبأس وأنا الراضية التي لا أسخط.. وأنا المقيمة التي لا أظعن. فيدخل الجنة فيرى بيتاً من أسه - أساسه - إلى سقفه مائة ألف ذراع. بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق أحمر وأصفر وأخضر ليس منها طريقة تشاكل صاحبها. وفي البيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون حشية. على كل حشية سبعون زوجة

(١) جاء هذا المعنى في الحديث الذي رواه الطبراني بإسناد حسن عن ابن عمر أن رسول الله سئل عن أكيس الناس وأحزم الناس فقال: (أكثرهم ذكراً للموت واستعداداً له..). صدق رسول الله ﷺ.

(٢) سورة مزيم. الأيتان رقم (٨٥، ٨٦).

على كل زوجة سبعون حلة. يرى مخ ساقها من وراء الحليل. يقضى جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأثمار من تحتهم تطرد. أثمار من ماء غير آسن - قال: صافي لا كدر فيه - وأثمار من لبن لم يتغير طعمه ولم يخرج من ضرور المشية. وأثمار من حمر لذة للشاربين لم يعتصرها الرجال بأقدامهم. وأثمار من غسل مصفى لم يخرج من بطون النحل. فستجلى الثمار فإن شاء أكل قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء متكئا - ثم تلا: {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أُطُوفُهَا ثِيَابًا} فيشتهى الطعام فيأتيه طير أبيض - وربما قال: أخضر - فترفع أجنحتها فيأكل من جنوبها أى الألوان شاء ثم تطير فتذهب. فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم. {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمس معها سوادا فى نور - أى لصار نورها أسود من شدة نور شعر الحوراء^(١).

هل استعد كل واحد منا لهذا اليوم لينال هذا النعيم ولينجو من عذاب الجحيم؟ أم ما نزال الشهوات تأخذ بخناق الكثيرين منا فيقتربون من الأثام ما يعرضهم لغضب الواحد العلام؟! ينبغي ألا يغتر أحد بمكان صالح يعيش فيه.. ولا بكثرة العبادة.. ولا بملازمة الصالحين.. ولا بكثرة العلم. فإن إبليس عليه اللعنة كان يعيش فى الجنة وكان يعبد الله مع الملائكة وكان له علم. ولكنه حينما عصى الله وأبى أن يسجد لأدم طرده الله من الجنة وحلت عليه اللعنة. وأدم عليه السلام كان كذلك لولا أنه هو وحواء تابا إليه وأنابا. وقال: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}

(١) قال ابن كثير عند تفسير الآيتين رقمي (٨٥، ٨٦) من سورة مريم - فقد روينا من كلام على أو هو أشبه بالصحة.

(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (٢٣).

أنواع الخوف من الله

ذكر الإمام الغزالي في كتابه " إحياء علوم الدين " أن الخوف على ثلاثة أنواع: نوع قاصر. ونوع مفرط. ونوع معتدل...

(١) أما الخوف القاصر: فهو الخوف الوقتي عند سماع آية تتحدث عن النار أو مطالعة كتاب فيه ما يبعث الخوف. ولكن هذا الخوف يزول بزوال سببه. ويشبهه بالعصا الضعيفة التي تضرب بها دابة قوية فلا هي تسوقها إلى مقصد ولا يصلح لرياضتها... وهذا خوف العامة.

(٢) وأما الخوف المفرط: فهو الذي يجاوز الحد إلى اليأس والقنوط - ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. ولا يقنط من رحمة ربه إلا القوم الضالون.

(٣) أما الخوف المعتدل: فهو بلازم الخائف ويذكره بقدره الله وبطشه وجبروته ويكون ذلك حاجزا له عن معاصي الله. قال حنظله - صاحب رسول الله ﷺ -: « كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رققت لها القلوب وذرقت بها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فدنيت مني المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا. فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ من الخوف والرقعة. فخرجت وجعلت أنادى: نافق حنظله. فاستقبلني أبو بكر الصديق فقال: كلا لم ينافق حنظله. قد خلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظله. فقال رسول الله ﷺ: كلا لم ينافق حنظله. فقلت يارسول الله: كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرقت منها العيون وعرفنا أنفسنا. فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك. فقال رسول الله ﷺ يا حنظله.. لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحال لصافحتكم الملائكة في الطريق وعلى فرشكم. ولكن يا حنظله ساعة وساعة»^(١).

هذا هو الخوف المعتدل الذي لا يقلع المسلم من دنياه الحلال ولا تحوله إلى قانط يائس. ولعلنا نذكر الثلاثة الذين أتوا إلى بيوت النبي ﷺ: «يسألون عن عبادتكم. فلما أخبروا بما كنتم قد تفألوهما - أي عدوها قليلة - فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

(١) حديث شريف رواه مسلم.

فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثاني: وأما أنا فأقوم الليل ولا أرقد. وقال الثالث: وأما أنا فلا أتزوج النساء!! وبلغ خبرهم رسول الله فقال: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا.. أما والله إني لأتقاكم الله وأحشاكم له وإني أصوم وأفطر.. وأصلي وأرقد.. وأتزوج النساء.. هذه سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني». (١) ما أحوج أمتنا إلى أن تخاف الله فنكف عن معاصي الله وعندئذ تختفي كل المظاهر السلبية... فهؤلاء هم الذين يطففون الكيل ويبخسون الميزان أناس ألا يخافون الله!! - {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (٢) - وهؤلاء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل وبالرشوة أو بالسرقة أو بالاختلاس أناس لا يخافون الله. فإله يقول: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْخِلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} (٣).

وهؤلاء الذين ينتهكون أعراض المسلمين بالفعل الشنعاء وبالكلمة الجارحة وبالنظرة الفاجرة أناس لا يخافون الله... وغير هؤلاء كثيرون. وغير أنني أقول إن الخوف من الله ليس خاصا بالعصاة والمذنبين فقط. بل إن الله أهل لأن يخاف وأن يتقى. وفي معنى الحديث القدسي عن رب العزة: «أقلو لم أخلق جنة أو نار أقلست أهلا لأن أتقى؟»... بلى يارب أنت أهل التقوى وأهل المغفرة. ولقد قال رسول الله ﷺ عن صهيب رضي الله عنه: «نعم العبد صهيب! لو لم يخف الله لم يعص». وهذا نهاية المدح فصهيب لو افترضنا جدلا أنه لا يخاف الله فلن يعصه أبدا!! فكيف وهو يخاف الله.

على كل منا أن يخاف الله تعالى. ويستعد للحساب. وليسأل نفسه بين الحين والحين كما كان عمر رضي الله عنه يسأل: «ماذا تقول لربك غدا يوم القيامة إذا وقفت للحساب بين يديه؟»... وعمر رضي الله عنه أحد المبشرين بالجنة. فكيف بنا؟؟

هناك أناس يجترئون على المال العام. فيسرقون ويختلسون. ولا عليهم إذا قدموا " الفواتير " لتسديد حساباتهم. ولم يعلموا أن الأخذ من المال العام أشد

(١) متفق عليه وهو من رواية أنس.

(٢) سورة المطففين. الأيتان رقم (٤، ٥).

(٣) سورة البقرة. الآية رقم (١٨٨).

وانكى من الأخذ من المال الخاص. فصاحب المال الخاص قد تسترضيه أما أصحاب المال العام فما أكثر عددهم. فكل المنتفعين به هم أصحابه فكيف ترضى هؤلاء جميعاً!!

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول - يعنى الأخذ من الغنمة قبل قسمتها - وهى مال عام للمسلمين - فعظمه وعظم أمره. ثم قال. لا ألفين - لا أجد - أحدكم على رقبته فرس له حممة يقول: يا رسول الله أغثنى. فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكَ. وعلى رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثنى. فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكَ. أو على رقبته رقاع - أقمشة - تحقق فتقول: يا رسول الله أغثنى. فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكَ» (١).

عن عمر بن الخطاب قال: «لما كان يوم خيبر. أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ: كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة. ثم قال رسول الله ﷺ: يا ابن الخطاب اذهب فتادي في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. قال فخرجت فتادي: ألا لا يدخل الجنة إلا المؤمنون». وملائكة الله تعالى وهم: {لَا يَغْضُونَ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (٢) وفيهم الراكع والساجد إلى ان تقوم الساعة يخافون ربهم من فوقهم. قال تعالى عنهم: {لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مَنْ خَشِيَهِ شَافِقُونَ} (٣)

نسأل الله الخوف منه. والرجوع إليه وأن يتقبل منا صالح أعمالنا. وأن يغفر لنا خطايانا.

إنه نعم المولى ونعم النصير

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) سورة التحريم. الآية رقم (٦).
(٣) سورة الأنبياء. الايتان رقم (٢٧، ٢٨).

من أخلاق المؤمنين :

الرجاء

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

الرجاء

خلق الرجاء ملازم لخلق الخوف من الله تعالى. ولا يذكر أحدهما إلا ذكر الآخر. والحق أنهما جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام محمود. وبلطتان يقطع بهما في طريق الآخرة كل عقبة كؤود... فالخوف هو الذى يردع من ارتكاب المعاصي. والرجاء هو الحب الذى يدفع إلى فعل الطاعات. والرجاء فى عفو الله ورحمته سمة من سمات المؤمنين. ذلك أن المؤمن لا يكمل الإيمان فى قلبه إلا إذا كان على يقين من لقاء الله عز وجل. وهو سبحانه وتعالى موصوف بالعفو والمغفرة وسعة الرحمة. ولو شك إنسان فى ذلك لحظة واحدة كان - والعياذ بالله - كافراً؛ ولذلك حذر القرآن الكريم من اليأس والقنوط لأن ذلك يناقض الرجاء والطمع فى رحمة الله. ولقد قال نبي الله إبراهيم عليه السلام: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} (١). ولما جاءت الملائكة ليبشروه عليه السلام بغلام عليم. وكانت سنة قد تقدمت وأصبح بحيث لا يستطيع الإنجاب من امرأته التى أصبحت عجوزاً كما وصفت نفسها فقالت: {أَلَيْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} (٢) ولما كانت قدرة الله لا يعجزها شيء فى الأرض ولا فى السماء قالت الملائكة للسيدة سارة: {أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} (٣) وقالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام: {بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ} (٤). وأسرع إبراهيم فنفى عن نفسه القنوط فقال: {وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} (٥).

الرجاء فى القرآن والسنة

تعالوا بنا نستعرض الآيات التى تتحدث عن خلق الرجاء. ونجد من ذلك قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (٦). وهذه الآية الشريفة - كما يقول العلماء -

(١) سورة الشعراء. الآية رقم (٨٢).

(٢) سورة هود. الآية رقم (٧٢).

(٣) سورة هود. الآية رقم (٧٣).

(٤) سورة الحجر. الآية رقم (٥٥) - ومعنى القانطين أى الأيسين من الخير أو الولد.

(٥) سورة الحجر. الآية رقم (٥٦).

(٦) سور الزمر. الآية رقم (٥٣)... رأيت فضيلة الوالد - رحمه الله - بعد وفاته فسألته: ماذا فعل الله بك؟ قلتلى على هذه الآية: (إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم)... نسأل الله الرحمة والمغفرة... آمين.

أرجى آية في كتاب الله تعالى.

ويذكر ابن كثير أن البخاري روى عن ابن عباس رضي الله عنه أن أناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا القتل. وزنوا فأكثروا. فأتوا محمد ﷺ فقالوا: «إن الذي تقول وتدعو له لحسن. لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة. فنزل قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخَلَّدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}»^(١). ونزل أيضا قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ}... فانت تجد أن هذه الآيات تفتح باب التوبة واسعا أمام كل من اقتترف سيئة. فإله: «يسط يده بالنهار ليعتوب مسيء الليل ، ويسط يده بالليل ليعتوب مسيء النهار حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢).

ومن الآيات التي تحت على الرجاء قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: {وَأَسْأَفُفُ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ}»^(٣). وورد أن رسول الله ﷺ قال: «لا أرضى وواحد من أمي في النار». وصدق القائل حيث يقول:

ألم يعطك الرحمن في سورة الضحى :: فحاشاك أن ترضى وفيها معذب^(٤)
وفي تفسير قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ}»^(٥) أن الله قال لرسوله ﷺ: «إني جاعل جاعل حساب أمتك إليك. قال: لا يارب.. أنت أرحم بهم مني. فقال: إذن لا تخزيك فيهم»... وغير ذلك كثير.

ومن السنة النبوية الشريفة ما ورد في الصحيحين ما معناه أن رجلا قتل تسعا وتسعين نفساً. ثم ندم وسأل عن أعباد أهل الأرض فدلوه على عابده. فقال له: هل لي من

(١) سورة الفرقان. الآيات أرقام (٦٨، ٦٩، ٧٠).

(٢) حديث شريف رواه مسلم والشمالي عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) سورة الضحى. الآية رقم (٥).

(٤) وقال آخر:

لقد قرأت في الضحى ولمسوف :: تعطى فسرق قلوبنا هذا العطاء

وحاشى يا رسول الله ترضى :: وفيها من يعذب أو يساء

(٥) سورة التحريم. الآية رقم (٨).

توبة؟ فقال له: لا. فقتله وأكمل المائة. ثم قال: دلوني على أهل الأرض. فدلوه على عالم فسأله: هل لي من توبة؟ فقال له: ومن يحول بينك وبين التوبة! ولكن اذهب إلى قرية أخرى وابدع الله مع أهلها، فذهب وفي أثناء سيره أدركته الوفاة. فنزلت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فاختصموا فيه. فأرسل الله ملكا وحكم بينهم أن قيسوا المسافة من مكان موته إلى القرية التي هاجر إليها. وإلى التي بهاجر إليها. فإذا وجد إلى أي الفريقين أقرب أخذته ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب. ولما قاسوا وجد أنه أقرب إلى القرية التي خرج مهاجرا إليها. فأخذته ملائكة الرحمة... فهذا رجل قد قتل مائة نفس. ولكنه تاب إلى الله. فقبل الله توبته وثولته ملائكة الرحمة^(١)... فأى رجاء في رحمة الله بعد هذا. والله رب غفور بنا!

روى الإمام أحمد بسنده ما معناه: أن شيخاً كبيراً جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يتكى على عصاه. فقال: يا رسول الله.. إن لي غدرات وفجرات فهل يغفر لي. وقال ﷺ: أليس تشيد ألا إله إلا الله؟ قال: بلى وأشهد أنك رسول الله. فقال ﷺ: قد غفرت لك غدراتك وفجراتك^(٢).

وفي حديث قدسي: «إن العبد إذا أذنب ذنباً فاستغفر الله. يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبيدي أذنب ذنباً فعلم أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب. أشهدكم أني قد غفرت له»^(٣).

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله... إنى لا أصوم إلا للشهر - أي شهر رمضان - ولا أزيد عليه، ولا أصلي إلا لخمس ولا أزيد عليها. وليس لله في مالي صدقة - يعنى أنه فقير. ولا حج ولا تطوع. فأين أنا إذا أذنبت؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال نعم... معى إذا حفظت قلبك من اثنتين: الغل والحسد. ولسانك من اثنتين: الغيبة والكذب. وعينك من اثنتين: النظر إلى ما حرم الله. وأن تزدري بهما مسلماً دخلت معى الجنة على راحتى هاتين.

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٢) وفى رواية البزار والطبرانى أن رسول الله قال له بعد أن أقر الرجل بالشهادتين: (تفعل الخيرات. وتترك السيئات. فيجعلهن الله لك خيرات كلهن). فقال الرجل: (وغدراتى وفجراتى). فقال النبي: (نعم). فقل الرجل: (الله أكبر. فما زال يكبر حتى توارى).

(٣) حديث شريف متفق عليه ذكره النووي فى رياض الصالحين.

الرجاء المقبول

وليس معنى الدعوة إلى رجاء الله لرحمته أن نترك العمل وأن ننغمس في الشهوات... لا. فهذا تجرؤ على الله وتعطيل لشعائر الله وشرائعه. فلا بد من العمل ولا بد من التذلل لله والتقيد بأوامره. ولكن إذا زلت القدم وامتنح المؤمن في ضعفه. فضعف أمام الدنيا وأمام النفس الأمارة بالسوء ووسوسة الشيطان الرجيم. فليس له أن ييأس من رحمة الله. ولكن عليه أن يتذكر أن عليه أن يعود إلى جناب الله وإلى طاعته تائباً نادماً. وعندئذ يجد رحمة الله في انتظاره - إن رحمة الله قريب من المحسنين - فليس الإيمان بالتمني ولكن ما وفر في القلب وصدقته العمل. وأن أناساً ألهمتهم أمانى المغفرة. وقالوا تحسن الظن بالله... وكذبوا لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل.

ويضرب الإمام الغزالي مثلاً يفرق بين الرجاء وبين الحق في الاعتماد على رحمة الله تعالى بدون عمل. فيقول: (ينبغي أن يقاس رجاء العبد بالمغفرة برجاء صاحب الزرع. فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً طيباً غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء في أوقاته. ثم نقى الأرض من الشوك والحشائش وكل ما يمنع نبات البذور ويفسده. ثم جلس ينتظر من الله تعالى دفع الصواعق والأفات إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته... فهذا الذي يسمى انتظاره رجاء. وأما من بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء. ولم يشتغل بتعهد البذور أصلاً. ثم انتظر إلى الحصاد.. سمي انتظاره حمقاً وغروراً) فالأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها :: إن السفينة لا تجرى على اليسب
وقال أحد الصالحين: من أعظم الاغترار عندي. التماذي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة. وتوقع القرب من الله بغير طاعة. وانتظار زرع الجنة ببذر النار. وطلب دار المطيعين بالمعاصي. وانتظار الجزاء بغير عمل. وما أكثر الحمقى في دنيا البشر. يحكم أحدهم على شهوته وتحاول أن تذكره بالحلال والحرام وبالجنة والنار فيقول لك - إن الله غفور رحيم. وربما يتحجج أحدهم فيقول: (خذني على جناحك!) ولهذا وأمثاله نقول: نعم إن الله غفور رحيم وهو أيضاً شديد العقاب. يقول الله تبارك وتعالى: (بئس

عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} (١). ويقول عز من قائل: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} (٢). إذن فالدائرة التي يدور فيها الرجاء ذنب يرجو العبد غفرانه. وعيب يرجو إصلاحه. وعمل صالح يرجو قبوله. وتقرب إلى الله تعالى يرجو أن يحظى به. فهذا هو الرجاء الذي يتسق مع قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ}. فقد وصفت الآية الراجين بأنهم مؤمنون... مهاجرون... مجاهدون. فلا يوجد رجاء بدون عمل. وقد ذكر القرآن الكريم أمثلة للراجين بدون عمل. ومن هؤلاء صاحب الجنين الذي ورد ذكره في سورة الكهف - قال تعالى: {وَاصْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أُعْتَابٍ وَحَقَفْنَاهُمَا بِشَجَرٍ لَئِيْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَبْعًا} - ماذا قال الرجل الغنى لصاحبه الذي قال له: {كَفَرْتُ بِاللَّهِ خَلَقْتُكَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ تُفْطَةٍ ثُمَّ سَوَّأْتُكَ رَجُلًا}. ذكره بأن الله هو الذي خلقه من تراب وهو الذي رزقه.. فعليه أن يعبد. لكنه قال: {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}. وقد يكون ذلك صحيحاً. فهو أكثر مالاً وهو أعز نفراً. لكن غير الصحيح أن يقول له: {وَلَكِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجْدُنْ خَيْرٌ مِنْهَا مُنْقَلَبًا} (٣). هذا هو الحق بعينه. كيف يكفر بالله - فيقول: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} - ثم يدعى بعد ذلك أنه إذا رجع إلى ربه فسوف يجد ما هو أفضل من جنته... هذا هو الرجاء بدون عمل. وهو مردود على صاحبه.

وهناك مثلاً ثانياً... وهو لليهود الذين يحرفون الكلم ويتعاملون بالربا ويستحلون الرشاوى. ثم يقولون: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}. ويقولون {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً} (٤). والقرآن رد عليهم بقوله: {قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ويقول الله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْتَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ} (٥). ذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: أن اليهود كانوا يستحلون الرشا. فكلما ولوا قاضياً أخذوا

(١) سورة الحجر. الأيتان رقم (٤٩، ٥٠).

(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (١٦٧).

(٣) كافة تفاصيل القصة مذكورة بمسورة الكهف بداية من الآية رقم (٣٢) وحتى الآية رقم (٤٤).

(٤) سورة البقرة. الآية رقم (٨٠).

(٥) سورة الأعراف. الآية رقم (١٦٩).

عليه العهد ألا يأخذ رشوة. فكان إذا سئمت له الفرصة أخذها وقال: سيغفر الله لي. وإذا عينوا قاضيا آخر أخذوا عليه نفس العهد. فأخذ الرشوة وقال: سيغفر الله لي.

وهناك مثال ثالث تشير إليه الآية الكريمة: {أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}...^(١) والآية تتحدث عن العاص بن وائل والد سيدنا عمرو بن العاص. فقد كان عليه دين لخباب بن الأرت. ولما ذهب خباب ليتقاضى دينه قال له العاص: في الآخرة سوف يؤتيني الله مالا كثيرا وأولادا كثيرين وسوف أقضيك دينك. فنزل قوله تعالى: «كلا سنكتب ما يقول ونعد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول وبآياتنا فردا»^(٢).

وخلاصة ما أريد أن أقرره أن العمل والرجاء مقترنان. وأن الرجاء وحده لا يغني عن العمل. قال تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا»^(٣). فقد أثبت لهم العمل الصالح والبعد عن كل مظاهر الشرك. وهكذا فالرجاء والعمل مطلوبان من المؤمن...

قال أحد محبي الإمام الشافعي: دخلت علي الشافعي أعوده في مرضه الذي مات فيه. فقلت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت عن الدنيا راحلاً. وإخواني مفارقاً. ولكأس المنية شارباً. ولا أدري إلي الجنة تسير روعي فأهنيها. أم إلي النار فأعزيها. ثم قال:

ولما قسي قلبي وضائق مذاهبي :: جعلت الرجا مني لعفوك سلماً
تعاضمني ذنبي فلما قرنته :: بعفوك ربي كان عفوك أعظماً

وهنا قد يثور سؤال مؤداه: هل العبادة مع الخوف أفضل أم العبادة مع الرجاء؟ والجواب: أن العمل مع رجاء قبوله أفضل من العمل مع الخوف من رده. فالحب سبب الرجاء وأحب الخلق إلى الله أكثر له حبا. ونضرب لذلك مثلاً فنقول: هب أن لك خادمين أحدهما يقوم بخدمتك بدافع الحب والآخر يقوم بنفس الخدمة ولكن لخوفه من أن تعاقبه. فلاشك أن الخادم الأول أفضل لأن الذي يدفعه لخدمتك حبه لك. وأما الثاني الذي

(١) سورة مريم. الآيتان رقم (٧٧، ٧٨).

(٢) سورة مريم. الآيتان رقم (٧٩، ٨٠).

(٣) سورة الكهف. الآية الأخيرة.

يخدم بدافع الخوف من العقاب فإنه قد يقصر إذا أمن عقابك.

ويروى في ذلك أن رجلين كانا متساويين في العبادة فلما دخلا الجنة رفع أحدهما أعلى من الآخر. فقال الذي درجته أقل يارب: ما كان هذا بأكثر عبادة منى فلماذا رفع أعلى منى. فيقول الله له: هذا كان في الدنيا يسألني الدرجات العالية وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كل واحد ما سأله. وقد قال رسول الله ﷺ: «سلوا الدرجات العلا فإثما تسألون كريما». وقال ﷺ أيضا: «إذا سألتم الله فأعظموها الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله تعالى لا يتعاضمه شيء». ومع ذلك فينبغي للمؤمن أن ينظر في أمر نفسه. فإذا كان الغالب على نفسه اليأس والقنوط. فالرجاء أفضل. فإذا كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله والاعتزاز بما يفعل فالخوف أفضل... فهما متلازمان. ولتفضيل أحدهما على الآخر تفضيلا مطلقا نقول: هل الخبز للإنسان أفضل أم الماء؟ ولا نستطيع أن نفضل أحدهما على الآخر تفضيلا مطلقا. فالخبز أفضل للجائع. والماء أفضل للظمآن. فهذا المثل يقرب لك معنى الخوف والرجاء غير أننا نقول: في حالة واحدة يحسن أن نفضل الرجاء على الخوف. وتلك هي حال الاحتضار حينما يحس الإنسان بدنو أجله عليه أن يحسن الظن بالله. ومما رواه مسلم عن جابر قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى»^(١)... وحضرت الوفاة أحد الصالحين فسأله أحد عواده: كيف ظنك بالله يافلان. فقال: ظني بالله والله حسن. فقال له: أبشر فيني سمعت رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «أنا عند حسن ظن عبدي بي.. إن ظن خيرا فله. وإن ظن شرا فله»^(٢). ولذلك لما حضرت الوفاة الإمام أحمد قال لابنه: (أذكر لي أحاديث الرجاء).

فيما عدا حال الاحتضار - وقت خروج الروح - فالعبد عليه أن يكون بين الخوف والرجاء. قال الإمام علي - كرم الله وجهه: «خف الله خوفا ترى أنك لو أتيت بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك. وارج الله رجاء ترى لو أنك أتيت بسينات أهل الأرض غفرها لك». وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جننه أحد. ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من جنينه».

(١) الحديث رواه مسلم وأبو داود.

(٢) القصة رواها ابن حبان في صحيحه والبيهقي وأحمد في مسنده. والمحتضر هو أبو يزيد بن الأسود. والذي سأله هو واثلة بن الأسقع.

ومن حديث أنس أن أعرابيا قال: «يارسول الله.. من يلي حساب الخلق؟ فقال النبي ﷺ الله تبارك وتعالى. فقال الأعرابي: هو بنفسه؟ قال ﷺ: نعم. فتبسم الأعرابي. فقال النبي ﷺ مم ضحكت يا أعرابي؟ فقال: إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح. فقال النبي ﷺ: صدق الأعرابي. ألا لا كريم أكرم من الله. ثم قال ﷺ: فقه الأعرابي.. هذا هو حسن الظن بالله تعالى. أما سوء الظن به فسوء أدب مع الله تعالى. فقد عير الله قوما فقال: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَاكُمْ إِذَا اصْبَحْتُمْ مِنَ الْحَاسِرِينَ} (١). وقال تعالى: {وَوَظَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا} (٢). إن الرجاء وحسن الظن بالله تعالى ينزل على قلوب اليائسين برداً وسلاماً. فيطفى ما في قلوبهم من قنوط. إنه نسمة ندية ترطب جفاف حياتهم. وما أصدق من قال:

أعلل النفس بالآمال أرقبها :: ما أضيقت العيش لولا قسمة الأمل

وقال آخر:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت :: نفس الخب تحسرا وتمزقا
لولا الرجاء يحدو المطي لما سرت :: بحمولها لديارهم ترجو اللقا (٣)

واستمع إلى هذه المناجاة من أحد الصالحين حيث يقول: (إلهي! أحلى العطايا في قلبي رجائك. وأعذب الكلام على لساني ثناؤك. وأحب الساعات إلي ساعة يكون فيها لقائك). (٤)

وإني لأرجو الله حتى كأنني :: أرى بجميل الظن ما الله صانع

(١) سورة فصلت. الآية رقم (٢٣).

(٢) سورة الفتح. الآية رقم (١٢).

(٣) ليس الرجاء فقط في مغفرة الله للذنوب. بل المسلم يرجو اليسر بعد العسر. والرزق بعد الفقر. والنسمة بعد الضيق. والخير بعد الشر... وهكذا. قال الشاعر:

هي الأيام والغير وأمر الله ينتظر :: أتيا من أن ترى فرجا فإين الله والقدر؟

(٤) موسوعة أخلاق القرآن المجلد الأول. الصفحة رقم (٢٢٦).

ثمرات الرجاء

وأركز بعض ثمار الرجاء فيما يأتي:

١ - إن الرجاء يجعل قلب الراجي موصولاً بربه. بعكس الساخطين البائسين فإبتهم انصرفوا عن جنات الله. وما أسهل أن يقعوا فريسة في مخالب الشيطان حينما يطرح عليهم شياكه. إن الأمل في طلوع الفجر يهون مشاق المسير في ظلام الليل.

عسى الكرب الذي أمسيت فيه :: يكون وراءه فرج قريب

٢ - إن الرجاء في قبول الله العباد من العابد تجعله يقبل عليها بحب. وهل شرع الدعاء إلا ليغرس بذرة الأمل في قلب نزلت به شدة. قال تعالى: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ}... فانظر كيف وصف الدعاء بأنه العبادة؟ بل ورد عن النبي ﷺ: «أنه مع العبادة. ومن لم يسأل الله بغضب عليه. وإذا أكرم الله عبده بقبول دعائه ازداد في الله حيا. وإليه قربا. وعليه اعتمادا»...

أتاك على قنوط منه لطف :: بمن به اللطيف المستجيب
فكل الحادثات إذا تاهت :: فموصول بما الفرج القريب

٣ - أن الرجاء يصل بصاحبه إلى حب الله تبارك وتعالى. فليس من المعقول أن يرجو العبد من لا يحبه... فكلما كثر رجاء العبد بربه ازداد حبه لله تعالى ورضي عنه وشكر له^(١).

أسأل الله أن يمتعنا بنعمة الرجاء فيه والإجابة إليه إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

(١) من ثمرات الرجاء أيضا مغفرة الذنوب... حكى أن القاضي يحيى ابن أكرم مات. فراه أحد أصحابه وقال له: ماذا فعل الله بك؟ قال: غفر لي ووبخني وقال لي: يا يحيى.. قد خلطت علي في الدنيا. فقلت: يا رب... اتكلت على حديث: (إن الله يمتحن من عبده وأمه يتبين في الإسلام أن يعذبهما). فقال لأبي: عفوت عنك - الرسالة القشيرية. الصفحة رقم (٢١). وروى مالك بن دينار في المنام فقيل له: ماذا فعل الله بك؟ قال: قدمت على ربي بذنوب كثيرة محاها عنى بحسن ظني به تعالى.

ومن ثمرات الرجاء أيضا أن الله يكون مع الراجي. قال تعالى في الحديث القدسي: (أنا مع ظن عبدي بي. فليظن عبدي بي ماشاء). فإذا ظن العبد بربه خيرا لقي خيرا. وغذا ظن به شر ناله سوءا.

وترك الرجاء مع العمل سوء أدب من العبد مع ربه. جاء في معنى الحديث الشريف: (إن أعظم الذنوب عند الله أن يقبض الحاج من عرفة وهو يظن أن الله لن يغفر له).

من أخلاق المؤمنين :

الطمع

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا
خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا
أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

الحلم

الحلم هو الأناة والتعقل وضبط النفس. والصبر عند هيجان الغضب. وهو احتمال الأذى ممن هو دونك مع القدرة عليه. ولا يسمى المرء حليماً إلا إذا كان حلمه طبعاً لا تكلفاً، والخطوة الأولى للحلم هو الحلم كما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ. وَالحَلْمُ بِالتَّحَلُّمِ». والحلم صفة من صفات الله. ومن أسمائه أنه الحليم... ومن مظاهر حلم الله على عباده أنه يراهم حيث نهاهم ويفتقدهم حيث أمرهم. ومع ذلك لا يعجل لهم العقوبة. وهم يتقلبون في نعمه حيث سخر لهم هذا الكون كله من مجرى الأفلاك في السماء إلى مسبح الأسماك في الأرض. ومع ذلك يعبدون غيره ويشكرون سواه!

انظر إلى الحية التي تلقى في باطن الأرض. من الذي يوفر لها الدفء والحرارة؟ ومن الذي يمدّها بأسباب النماء والبقاء؟ هل يستطيع إنسان أن يزعم غيره؟ قال عز من قائل: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾^(١). وانظر إلى شربة الماء وأسأل نفسك من الذي أنزلها لك من السماء؟ واتل قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْحًا﴾^(٢)... فالطعام أخرجته الله من الأرض والماء أنزله من السحاب. ومع ذلك نعبد غيره ونشكر سواه. والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تدعو إلى الحلم.. وضبط النفس.. وكظم الغيظ. وكلها معاً متقاربة تدعو إلى الأناة وعدم التعجل. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٣). فهذا أسلوب كريم وتوجيه حكيم يدعو المؤمنين إلى أن يملكوا زمام أنفسهم عند سماع ما يهيج غضبهم ويثير حفيظتهم. وعليهم أن يتبينوا وإلا فابتهم إذا تسرعوا أصبحوا نادمين على ما فرط منهم... قد يسمع الإنسان كلمة

(١) سورة الواقعة. الآيات أرقام (٦٣، ٦٤، ٦٥).

(٢) سورة الواقعة. الآيات أرقام (٦٨، ٦٩، ٧٠) - ومن بلاغة القرآن الكريم في هذه الآيات: أن الله ذكر لام التوكيد في مسألة الزرع في قوله: (لو نشاء لجعلناه) ولم يذكرها حين تحدث عن نزول الماء من السحاب (لو نشاء جعلناه)... والحكمة أن الإنسان ربما سولت له نفسه أن يزعم أنه هو الذي أنبت الزرع لأنه حارث الأرض وواضع البذور وساقبها. فجاء التأكيد باللام حتى لا يجرؤ أحد على هذا. وفي نزول الماء لم تذكر اللام لأنه من المستحيل أن يدعى أحد أنه قادر على تجميع السحاب أمره بنزول أمطار حيث شاء وأراد. وبالتالي لم تكن هناك للتأكيد. والله أعلى وأعلم.

(٣) سورة الحجرات. الآية رقم (٦).

طائفة من إنسان أخرج أو يقابل بتصرف أحمق. فيغضب ويثور وينفعل ويقابل السيئة بالسيئة. لكن الحلیم هو الذي ينحو من ذلك فلا يصبح العوبة في يد الشيطان. حيث یلقى في وجهه جمرة الغضب ويضله عن التفكير السليم. والتصرف الكريم الذي يليق بالمؤمن الذي رضي بالله رباً. وبالإسلام ديناً. وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

روى أبا هريرة أن النبي ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة^(١) وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٢)... ولقد كان رسول الله ﷺ القدوة المثلى في الحلم...: «كان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم يوم حنين فجاءه أعرابي. فقال يا نبي الله اعدل - أي اقسم بالعدل في توزيع الغنائم - فقال له النبي ﷺ: ويحك! فمن يعدل إذا لم أعدل؟! فقد خبت وخسرت إذا لم أعدل. وغضب عمر لهذه الإهانة التي صدرت من هذا الأعرابي لرسول الله ﷺ الذي لم يتأدب هذا الأعرابي في مخاطبته. وقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه فإنه منافق. فقال النبي الحلیم الكريم: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي»^(٣)...

هذا الأعرابي يوجه هذا الاتهام الباطل لسيد الخلق ﷺ أما الناس وعلى رؤس الأشهاد. ومع ذلك لم يقل له الرسول العظيم شيئاً وإنما يقول عن نفسه: «فقد خبت وخسرت إذا لم أعدل». وهو ﷺ لا يقابل السيئة بالسيئة ولكنه يعفو ويصفح... ﷺ وبارك عليك يا سيدي يا رسول الله. يا من أدبك ربك فأحسن تأديبك. لقد كنت قرأنا يمشي على رجلين. وكان خلقك القرآن كما وصفتك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها. ليس ما فعلته مع هذا الأعرابي تفسيراً عملياً راشداً لقوله تعالى: {عَلِدِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}^(٤). وكان هذا من الجاهلين للأدب الذي أدبنا الله به في حضرة رسول الله ﷺ. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}^(٥). وهذا لم يرفع صوته قط. وإنما رفع صوته واتهم الرسول ﷺ بعدم العدل.

(١) بضم الصاد المشددة وفتح الراء. وهو المصارع الذي يصرع الرجال ولا يصرعونه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) الحديث بمعناه في الصحيحين من رواية انس بن مالك.

(٤) سورة الأعراف. الآية رقم (١٩٩).

(٥) سورة الحجرات. الآية رقم (٢).

فقد أساء الأدب وتعدى طوره وجاوز حده الذي كان يجب عليه أن يقف عنده ولا يتخطاه.

يروى عن سليمان عليه السلام أنه قال: «القاهر لنفسه أشد من أن يفتح مدينة لوحده». والمعنى أن الذي يستطيع أن يسيطر على نفسه عند الغضب. فيكفها عن آثاره يكون أقوى من إنسان استطاع أن يفتح مدينة واحدة. وهذا حق منه. ذلك لأن كثيرين ممن يفتحون المدن ويحصلون على الأوسمة والنياشين لبطولتهم وقوتهم قد لا يستطيعون أن يسيطروا على شهواتهم أمام إغراء امرأة تسحرهم بجمالها. أو أمام قذح من الخمر يذهب بلبهم... وبذلك يصبحون أسرى شهواتهم وعبداً لنزواتهم. إن الإنسان الحليم الذي لا يعجل وإنما يتأنى. ولا يقابل السيئة بالسيئة. ولكنه يغفر ويصفح. هذا الإنسان يكون محبوباً من الله ومحبوباً من الناس. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١)... انظر كيف رتب القرآن على مقابلة السيئة بالحسنة. وكيف أن من يصفح عنه يكون صديقاً حميماً لمن أساء إليه. ثم يقول إن هذه منزلة عالية لا يصل إليها إلا الصابرون أصحاب الحظ العظيم. ويقول الرسول ﷺ: «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعدوا بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصي الله. وحلم يكف به السفيه. وخلق حسن يعيش به في الناس».

وقد حدد النبي ﷺ ثلاث صفات من لم يتصف بواحدة منهن فلا قيمة لما عمله:

الأولى: تقوى الله التي تقف حاجزاً بين العبد وبين معاصي الله. فالتقوى هي أن يجعل المتقى بينه وبين معاصي الله وقاية تمنعه من أن ينحدر إلى مستنقع الرذيلة لأنه على ذكر الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَلَذَّكُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

الثانية: حلم يكف به السفيه. وما أكثر السفهاء الذين يقابلهم الإنسان في حياته. فلو أنه قابلهم بسفه يرد به سفاهتهم لتكدرت حياته وأظلمت معيشته وتدخل الشيطان بينه وبينهم. ولكنه إذا قابل ذلك بالحلم الذي يمنع هذا السفه لكان ذلك راحة لقلبه. حيث يعلم

(١) سورة فصلت. الآيات رقم (٣٤، ٣٥).

(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (١٠٢).

أن الله يقيض له ملكا يرد عليه. وهل يستطيع إنسان أن يرد كما يرد الملك؟... يروى أن أبا بكر - رضي الله عنه - كان جالسا مع رسول الله وكان في المجلس رجل يسيء إلى أبي بكر بالكلام. وسكت أبو بكر مرة ومرة. وفي الثالثة رد أبو بكر على الرجل. فقام الرسول ﷺ من المجلس. وفظن الصديق إلى أن الرسول ﷺ قد أغضبه ذلك. فقال: يا رسول الله... أغضبت علي لأنني رددت على الرجل. فقال النبي ﷺ مامعناه: قد كان هناك ملك يرد عنك وأنت ساكت. فلما انتصفت لنفسك ذهب الملك وجاء الشيطان. وما كنت لأجلس في مكان به شيطان.

الثالثة: خلق يعيش به بين الناس. فصاحب الخلق الحسن محبوب من الله والناس. يقول النبي ﷺ: «ألا أدلكم على أقربكم مني مجلسا يوم القيامة؟ أحسنكم أخلاقا. الموطنون أكنافا. الذين يالفون ويؤلفون»^(١).

وأولى الناس بحلمك أيها المؤمن إنما هم أهل قرابتك. فكن حليما معهم وتجاوز عن سيئاتهم وزين نفسك بخلق الحلم وتآلفهم به. جاء رجل إلى النبي وقال: «يا رسول الله.. إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني. وأحسن إليهم ويسئون إلي. وأحلم عنهم ويجهلون علي. فقال ﷺ: إن كنت كما تقول فكأنما تسفهم المل - أي كأنما تطعمهم الرماد الحار - ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك»^(٢). وقال رجل من صحابة رسول الله ﷺ: اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها. فأبى رجل أصاب من عرضي شيئا فهو عليه صدقة. فأوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ: أنى قد غفرت له.

تذكر أخي المسلم أن الله تبارك وتعالى قال في أوصاف عباد الرحمن: {الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}^(٣)... فإذا غضبت وقدرت على إنفاذ غضبك فدعه لله. فإذا ذكرت الله عند غضبك على الناس ذكرك الله عند غضبه عليك - كما جاء ذلك في الحديث القدسي: «عبدني إذا غضبت على الناس فاذكروني أذكرك عند غضبي».

والجزاء من جنس العمل. ولكن شأن بين ذكر العبد وذكر الرب. إن ذكر الله يكون

(١) رواه الطبراني والبيزار من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة الفرقان. الآية رقم (٦٣).

بالعفو والصفح. والنجاة من نار وقودها الناس والحجارة. ودخول جنة عرضها السموات والأرض أكلها دائم وظلها ممدود.

تروى السيدة عائشة - رضي الله عنها - أنه قالت: «يا رسول الله... هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال ﷺ: لقد لقيت من قومي. وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال. فلم يجيبني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي. فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - اسم مكان - فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظلتني. فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام. فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك. وما ردوا به عليك. وأن الله قد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيه. فناداني ملك الجبال فسلم على فقال: يا محمد.. إن الله قد سمع قول قومك لك. وأنا ملك الجبال. وقد بعثني ربى إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت.. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيش؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً»^(١).

هذا بعض ما لقيه رسول الله ﷺ من قومه. وكيف مكنه الله تعالى أن ينتصف لنفسه بأن جعل ملك الجبال يأمر بأمره. ولو لم يكن النبي ﷺ حليماً لانتصر لنفسه. وكانت الجبال وما أثقلها وما أضخمها على رؤوسهم بحيث لا تبقى ولا تذر منهم أحداً. لكنه الحليم الذي رجا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً. وقد حقق الله رجا نبيه وهدى قومه. وحاربوا معه ﷺ. وأخرج الله من أصلابهم العباد والزهاد. وكل ذلك ببركة حلم رسول الله ﷺ. ولما نزل قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. قال النبي ﷺ: يا جبريل. ما هذا؟ فقال جبريل: لا أدري حتى أسأل الله. ثم علا جبريل وقال: يا محمد. إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك. وتعطي من حرمك. وتعفو عمن أساء إليك.

يحكى أن أحد الصالحين دعا خادمه ليصب عليه الماء لينوضأ. فوقع الإبريق من الخادم في الطست فأصاب الماء الرجل. فلما ظهرت عليه أمارات الغضب وخاف الخادم وقال: يا سيدي. يقول الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾. فقال كظمت غيظي. فقال الخادم: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. فقال: عفوت عنك. فقال الخادم: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(١) القصة رواها البخاري في صحيحه - كتاب بدء الخلق - ومسلم باب ما لقي النبي من أذى المشركين.

فقال: اذهب وأنت حر لوجه الله تعالى^(١)... والسيدة عائشة رضي الله عنها قد اغتاضت على خادم لها ثم رجعت إلى نفسها وقالت: (الله در التقوى ما تركت لدى غيظ شفاء) تعنى أن التقوى تجعل المتقى لا يشفى غيظه. وإنما يترك ذلك لله تعالى.

ويوم القيامة إذا جمع الله الأولين والآخرين. نادي مثاد: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس وينطلقون سراعاً إلى الجنة. فيقولون لهم نحن أهل الفضل: فنقول الملائكة: ما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظلمنا - ظلمنا غيرنا - صبرنا... وإذا أسئء إلينا عفونا.. وإذا جهل علينا حلمنا. فيقال لهم: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}^(٢).

من سير الحكماء

وما أحلى أن نذكر بعضاً من سيرة الحكماء لتكون لهم بهم أسوة... فمن ذلك أن رجلاً ضرب رجلاً حليماً على رجله حتى أوجعه. فلم يغضب عليه. فقيل له في ذلك. فقال: أقمته مقام حجر تعثرت فيه، فذبحت الغضب... قال رجل لابن هبيرة كلاماً بذينا فأعرض عنه. فقال له الرجل: إياك أعنى. فقال ابن هبيرة: وعك أعرض... وشم رجل الشعبي. فقال الشعبي: إن كنت أنا كما قلت فليغفر الله لي. وإن لم أكن كما قلت فليغفر الله لك - فهل رأيت حليماً كهذا الحلم. إنه يدعو لمن يشتمه لو كان الرجل كاذباً ويستغفر لنفسه إذا كان الرجل صادقاً...

وقال رجل لضرار بن القعقاع: والله لو قلت كلمة واحدة لأسمعك عشراً. فقال ضرار: ولكنك لو قلت عشراً ما أسمعك كلمة واحدة... وجعل رجل يسب الأحنف بن قيس وهو يماثيه في الطريق. فلما اقترباً من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقى معك شيء فقله هاهنا فإني أخاف إن سمعتك فتبان الحي أن يؤذوك... وقيل لأحد الصالحين إن فلانا وقع فيك. فقال: لأغيظن من أمره - يعنى الشيطان - يغفر الله لي وله... وسب رجل ابن عباس رضي الله عنه. وكان جعفر ابن أبي طالب - وهو ابن عمه - موجوداً فقال: يا جعفر. هل للرجل من حاجة فنقضبها له؟ فنكس الرجل رأسه وانصرف.

(١) ما قاله الخادم هو الآية رقم (١٣٤) من سورة آل عمران.

(٢) رواه الأصبهاني من حديث عمر بن شعيب ذكره المنذرى في الترغيب والترهيب. وأشار إليه بصفة الضعيف.

الحلم المذموم

وأحب أن أتبه هنا إلى أن للحلم مواضع يحسن فيها. ومواضع لا يحسن فيها بل إنه لا يسمى حلماً وإنما يسمى جبناً أو نفاقاً. فلا حلم مع أعداء الله ورسوله وأعداء الدين وأعداء الأمة الإسلامية. فهؤلاء يؤخذون بالشدّة والقوة. ولقد وصف الله المؤمنين بأنهم {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} (١). ويقول عن الزناة وهاتكي الأعراض حينما يقام عليهم الحد: {وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} (٢). وإذا أنقص الوالي سوطاً من هذا الحد يسأله الله يوم القيامة لماذا نقصت هذا السوط؟ فإذا قال أخذتني الرأفة به. قال الله: وهل أنت أراف به مني؟! يقول الله لنبيه ﷺ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (٣). وكان رسول الله ﷺ إذا انتهكت حرمة الله يغضب حتى يعرف في وجهه الغضب... قال الإمام على رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ لا يغضب للنديا. فإذا غضب للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له. فالحلم قد يكون محموداً وقد يكون غير محمود. وليس معنى الحلم ألا يغضب الإنسان أصلاً. فهذا شيء يناقى الفطرة. ولكن الحلم هو الذي يتقيد بقيد الدين والعقل. قال الإمام الشافعي: (من استغضب فلم يغضب فهو حمار. ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان). وقال القائل:

ولا يقيم على ضيم يراد به :: إلا الأذلان: غير الحي والوتد^(٤)
هذا على الخسف مربوط برمته :: وذا يشج فلا يرثى له أحد

فالحليم يغضب ولا يسيطر على غضبه حينما تنتهك حرمة الله. ويسيطر على غضبه حينما يكون الأمر متصلاً بذات نفسه... جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ يطلب منه شيئاً. فأعطاه وقال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه. فأشار إليهم أن كفوا. ثم قام ودخل منزله. وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال له النبي ﷺ: إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي منك شيء من ذلك. فإن أحببت فقل بين

(١) سورة الفتح الآية الأخيرة.

(٢) سورة النور. الآية رقم (٢).

(٣) سورة التحريم. الآية رقم (٩).

(٤) غير الحي: الحمار - والوتد: العصي التي تثبت في الأرض لتشد الخيام.

أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها إليك. قال: نعم. فلما كان الغد أو العشي جاء فقال النبي ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فردناه فزعم أنه رضي. أكنذك يا أعرابي. فقال الأعرابي: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال النبي ﷺ: إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه. فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورا. فناداهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها وأعلم. فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ من قمام الأرض فردها هونا هونا. حتى جاءت واستقامت وشد عليها رحلها واستوي عليها. وإني لو تركتكم حيث قال ما قال ففلقتموه دخل النار.

وفي تشريع الصيام ما يربى هذا الخلق وينميه عند الصائم. وقد علمنا الرسول ﷺ أن الصائم إذا سابه أحد أو شاتمه فلا يرد عليه. وإنما يقول: إني صائم.. إني صائم. وهذا تدريب عملي على الحلم. ولكن كثيرا من الصائمين الذين لم يلتزموا بهذا الخلق الكريم نراهم يثورون لأنفه الأسباب. وربما اعتذر بعضهم عن سفاهته بأنه صائم. أو ربما اعتذر غيره عنه بنفس العذر. وهو عذر أقيح من ذنب لأنه نسب إلى الصوم أنه يجعل الخلق سينا. وحاشا لتشريع من تشريعات الله تعالى أن تؤدي إلى ذلك. فالعكس هو الصحيح... فالصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر. والزكاة تزرع الحب والمودة بين الفقير والغنى. والصوم يدرّب النفس على الحلم والأناة والصبر والمراقبة لله. والحج فيه منافع للناس. ومن أجل أهدافه ألا يرفث الحاج ولا يفسق... وهكذا. فليت المسلمين اليوم يتحلوا بمكارم الأخلاق. ويلتزموا بالأداب الإسلامية عامة وبخلق الحلم خاصة. وبدلاً من أن يلعنوا الظلام يوقدوا فيه شمعة تهدي الحائر وترشد الضال... وصدق القائل:

نعيب زماننا والعيب فينا :: وما لزماننا عيب سوانا
 ولمحو ذا الزمان بغير ذنب :: ولو نطق الزمان لنا... هجانا
 وليس الذنب يأكل لحم ذنب :: ويأكل بعضنا بعضا عيانا
